النظرية السياسية

(٢)

همــوم سيــاسيــة

تأليــف

أبــي عبد الرحمن ابن عقيــل الظــاهري

(محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله العقيل)

ـ عفا الله عنهم ـ

دار ابن حــزم للنشــر والتـوزيـع

(ص.ب ٢٢٥٦٦ / الرياض ١١٤١٦)

هاتف وفاكس ٤٦٢١٥٤٢

الطبعة الأولى / سنة ١٤١٨ هـ

ⓒ دار ابن حزم للنشر والتوزيع ، ١٤١٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الظاهري ، أبو عبدالرحمن بن عقيل
همو م سياسية - الرياض
... ص ؛ .. سم
ردمك ٣-٢٣-٧٩٥-٩٩٦٠

١- السياسة - مقالات ومحاضرات ٢- التاريخ الإسلامي أ- العنوان
ديوي ٣٢٠،٠٠٨ ١٨/٠١٧٣

رقم الإيداع : ١٨/٠١٧٣
ردمك ٣-٢٣-٧٩٥-٩٩٦٠

[وافترقت في ولاية بني العباس كلمة المسلمين ، فخرج عنهم منقطع الزابين دون إفريقية إلى البحر المحيط وبلاد السودان ، فتغلب في هذه البلاد طوائف من الخوارج وجماعية (١) وشيعة ومعتزلة من ولد إدريس وسليمان ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ٠٠ ظهروا في نواحي بلاد البربر ٠٠ ومنهم من ولد معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان ٠٠ تغلبوا على الأندلس ، وكثير من غيرهم ٠

وأيضاً في خلال هذه الأمور تغلب الكفرة على نصف الأندلس وعلى نحو نصف السند ٠٠ فأما ما لم يملكه العباسيون فهو ما وراء الزاب من بلاد المغرب وتلمسان وأنظارها (٢) ، فوليها محمد بن سليمان الحسني ، وفاس وأنظارها (٣) ٠٠ كان فيها شيعة ، ثم آل ملكها إلى إدريس ٠٠ وأما تامسنا ففيها أولاد صالح بن طريف على ضلالتهم ، وأما سجلماسة فنزلها رئيس الصفرية ٠

هذه هي البلاد المتفق عليها ، وأما المختلف فيها فإفريقية ٠٠ قيل : إنه كان فيها عبدالرحمن بن حبيب ثائراً ، وفي الأندلس يوسف بن عبدالرحمن الفهري ٠

---

(١) أي من أهل السنة والجماعة ٠

(٢) هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : نظائرها ، أو أقطارها ٠

(٣) هكذا في الأصل ٠

أبو محمد ابن حزم

أسماء الخلفاء والولاة ضمن رسائل ابن حزم

١٤٧/٢]

فهرس بمواد الكتاب

الاستفتاح والمقدمة :

الحمد لله خالق الخلق بقضائه الكوني ، ومدبرهم بقضائه الكوني والشرعي .. وخلقه وشرعه مقتضى قدرته وعلمه وحكمته ، وإحسانه وعدله ورحمته .. فالخلق عبيده وملكه .. يتشرفون بالعبودية لربهم شرعاً بقدر تحررهم عما سواه .. أما قضاء وقدراً فكل الخلق عبيده على الرغم منهم .. مؤمنهم وكافرهم ؛ لأن الله فعَّال لما يريد ، ولا غالب لأمره .

وكل ما أمضاه الله على عبده بلا حرية من العبد ولا اختيار فليس مسؤولاً عنه ولا محاسباً .. وإنما يحاسب ثواباً وعقاباً على ما يصدر عن حريته من شكر لله على قضائه إن كان حسنة ، ومن صبر ورضى إن كان سيئة .. ويعلم العبد أن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وأن ما أصابه من سيئة فمن نفسه عقوبة له وتمحيصاً من جراء ذنب ارتكبه ، أو ابتلاء يمتحن الله به إيمانه فيُدَّخَر له ، أو يقدم له في دنياه - أو هما معاً - .. وقد يكون في ادِّخاره أن يُضاعف أضعافاً مضاعفة من الخير الأبدي .. وقد يكون في تعجيله الرضى والحياة الدنيوية الكريمة إن هو صبر وشكر .

وإنما يحاسب العبد على ما اعتقده أو قاله أو فعله عن حرية منه وقدرة واختيار .. فإن أقعده عذر من مرض أو غيره كُتب له أيام عذره ما كان يفعله من الخير حال قدرته ، ولم يكتب عليه ما كان يفعله من الشر .

وإن همَّ بشر ولم يفعله من أجل الله كُتب له أجر ، وإن لم يفعله عجزاً لم يكتب عليه الإثم ، وقد يؤاخذ على مقدار سعيه لما عجز عنه .

وإن هم بالحسنة ولم يفعلها كتب له أجر ، وإن فعلها كتب له أجر إلى ضعف إلى أضعاف كثيرة .

ويُحبط الذنوب ويضاعف الحسنات قربات بعضها لا كُلْفة فيه كتحسين

النية دائماً والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير .

وقد تحبط الحسنات وتتضاعف السيئات بفعل الكبائر لا سيما في الأزمان والأماكن الفاضلة ، ولكن العبرة بالخواتيم .. فما أكرم ربنا جل جلاله وأبره في ثوابه ، وما أعدله وأكثر صفحه وعفوه في عقابه ؛ ولهذا لا يهلك على الله إلا هالك .

وكل تصرف في ملك الله بغير إذنه الشرعي ، أو بغير شرعه فهو ظلم عظيم سبيله الجهل والنقص ، ومآله الخيبة والوبال ، ولا يصلح خلق الله غير شرع الله .. أحمده وأشكره عدد خلقه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ، ولا أحصي ثناء عليه .. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. ومن نعمه جل جلاله أن دفع الناس بعضهم ببعض ، وجعل وازع السلطان رحمة للأمة لتعود لوازع القرآن .

والصلاة والسلام على السراج المنير ، والهادي البشير النذير عبدالله ورسوله إلى الناس كافة محمد بن عبدالله .. اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وصحابته ذوو السيرة العملية المحفوظة المتأسون به اعتقاداً وقولاً وفعلاً هم السلف الصالح ، ومن تبعهم فهم أهل السنة والجماعة في أي زمان أو مكان كانوا ؛ لأن الرسول ﷺ حسم الأمر ، وبين سيما الفرقة الناجية بقوله : من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي .

أما بعد : فهذا الكتاب من الهموم التاريخية ، وليس من الهموم السياسية في شيئ ، وما أنا ممن يحسن شيئاً من أبجديتها .. وإنما جعلته هموماً سياسية ؛ لأن العرف جرى على اعتبار كل حديث عن التاريخ المعاصر سياسة !! .

والسياسة – في واقع العرف الاصطلاحي لا اللغوي – هي الفقه في التاريخ

المعاصر قبل استقراره : بتوقع أحداثه ، وتعليلها ، وتفسيرها قبل وقوعها وحال وقوعها .

وحينما تمر الأحداث ، ويمضي عليها سنوات ، وتظهر نتائجها : تكون تاريخاً يملك تسجيلها والحكم فيها السياسي والمؤرخ معاً .

وإنما يتميز المتابع للتاريخ المعاصر المتفقه فيه بالسياسة إذا كان له من القدرة والأهلية ما يستطيع به النبوءة بأحداث أو نتائج ستقع بناء على ربط بين أحداث وقعت وقد ملك تفسيرها وتعليلها .. ويتميز بالسياسة أكثر إذا كان على اتصال بصنّاع السياسة ومنابعها .. ويكون سياسياً حقيقة إذا كان من أطراف صانعي القرار السياسي إضافة إلى الحس التاريخي الذي عبرت عنه آنفاً بالأهلية .

إذن هذا الكتاب عن أشياء من التاريخ السياسي خصصتها بالذكر ؛ لأنها من همومي منذ عقلت العلم ، ووعيت بما يجري حولي .. فنحن نعيش – وكل العالم الثالث كذلك – في أحضان دول كبرى امتحننا الله بتفوقها علينا على ظهر هذه المعمورة عسكرياً وعلماً مادياً .. وهي دول كافرة بالله وشرعه .. كل معاييرها دنيوية نفعية بحتة ، وكل قرار لها من منطق القوة بظلم وجلافة وقسوة .. ونحن ذوو تاريخ كريم كله إحسان ورحمة ، ومطلوب منا شرعاً أن نتحمل القوامة على البشرية حتى يكونوا إخواننا في الملة ، فيشتركوا معنا في القوامة .. ومن هذا الهمِّ كتبت الفصل الأول عن المعادلة بين تاريخنا الكريم الغابر ، وتاريخ الظلمة المتسلط الراهن .

وهذا همٌّ مشترك بين أفراد العالم الثالث لا علاج له إلا بالوحدة التي تجمع قوى الأمم ، وتتيح لها الفاعلية .. إلا أن وحدة أمتنا مشروط بوجودها المعتبر ، وهو الإسلام وأداته لغة العرب ، والحفاظ على تركة المسلمين من الرقعة ، فكان

من هذا الهم الفصل الثاني ، وهو المعادلة بين الوحدة بانفلات علماني ، والوحدة بضوابط إسلامية ٠

وتحققت في جزيرة العرب وحدة مثالية ديناً ووطناً وأمة ، فكان لدولتها حقوقاً عظيمة على الرعية تقتضي محافظتهم على الكيان ، فكان من هذا الهم الفصل الثالث عن واقع دولة عصبيتها الدين ٠٠ وأبقيت العصبية على مفهوم ابن خلدون لهذا المصطلح ٠

وأفرز ما عانيته في الفصل الأول من تسلط الدول الكبرى على شرقنا موارد وثقافة وتديناً أموراً عالجتها بالفصلين الرابع والخامس ، فتكلمت في الفصل الرابع عن الديموقراطية والحزبية التي يفرضها التسلط الأجنبي بمقابل الحريات المشروعة في ديننا ٠

وتكلمت في الفصل الخامس عن تسلط الأجنبي الذي نفذه أبناء جلدتنا وما أحدثه من ردة فعل لدى الشعوب العربية والإسلامية ، ورمزت لذلك زماناً بعهد ١٩٥٢م ٠

وهذا الكُتَيِّبُ هو الدفعة الثانية في سلسلة « النظرية السياسية » ٠٠ وأول ما صدر في هذه السلسلة كتاب « الحق الطبيعي وقوانينه » عام ١٤١٦هـ ٠٠ ومن الله أستمد العون وأستلهم الرشد ٠

وكتبه لكم :

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

تونس / فندق أبي نواس – مغرب يوم

الأحد الموافق ١٤١٧/٨/٢٦هـ

[قال الإمام أبو محمد ابن حزم : « ثم ولي الحَكَمُ بن عبدالرحمن (ويلقب بالمستنصر بالله) وله إذ ولي سبع وأربعون سنة ، يكنى أبا العاص ، أمه أم ولد اسمها مرجان ، وكان حسن السيرة ، جامعاً للعلوم ، محباً لها ، مكرماً لأهلها ، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحدٌ من الملوك قبله هنالك ، وذلك بإرساله عنها (١) إلى الأقطار ، واشترائه لها بأغلى الأثمان ، ونفق ذلك عليه (٢) ، فحُمِل إليه .

وكان قد رام قَطْع الخمر من الأندلس وأمر بإراقتها وتشدد في ذلك ، وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله ، فقيل له : إنهم يعملونها من التين وغيره ، فتوقف عن ذلك » .

وذكر أبو محمد القصيدة الرائية لأبي عمر يوسف بن هارون الكندي الرمادي في توجعه لشاربي الخمر لما أمر الحكم بإراقة الخمور في سائر الجهات .

---

(١) أي بإرساله في البحث عنها .

(٢) هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : لديه .

رسائل ابن حزم
١٩٤/٢]

الفصل الأول : شيئ من المعادلة بين التاريخ الإسلامي ، وتاريخ الدولةالعظمى الراهنة :

[قال الإمام أبو محمد ابن حزم عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهم : « بويع له بمكة سنة أربع وستين بعد ثلاثة أشهر منها ، وأجمع عليه المسلمون كلهم من إفريقية إلى خراسان حاشا شرذمة ابن الأعرابية (١) بالأردن ، فوجه إليهم رسوله مروان بن الحكم ليأخذ بيعتهم بعد أن بايعه مروان بن الحكم .. فلما ورد عليهم خلع الطاعة .. وهو أول من شق عصا المسلمين بلا تأويل ولا شبهة ، وبايعه أهل الأردن ، وخرج على ابن الزبير ، وقتل النعمان بن بشير أول مولود في الإسلام من الأنصار .. صاحب رسول الله ﷺ بحمص » .

---

(١) يعني حسان بن مالك بن بحدل الكلبي .

أسماء الخلفاء والولاة ضمن رسائل ابن حزم
١٤١/٢]

لم تعرف كتب التاريخ قط أعرق من التاريخ الإسلامي بُعداً زمنياً ، وامتداداً مكانياً . . وما سَجَّلت عليه قط أنه هدف إلى ابتزاز اقتصادي ، أو غطرسة عسكرية ، أو تضليل فكري للمخالفين في الملة والنحلة ، أو نزوع عرقي أو إقليمي . . وإنما حملوا دستوراً إلهياً هو آخر الأديان وناسخها ، فانطلقوا بقدرة خارقة متحمسة بمقتضى مراد الله من الجهاد ، ورأبوا شمل الأمم بمقتضى مراد الله في حرية الأديان ، وسيادة القانون ، والوفاء بحق الرعية .

وما أفلح الكاشحون من الحاقدين على تاريخنا في بلورة تهمة إلا بحيلة الخداع في فرض العلاقات بين الأحداث كخداع الرؤية السينمائية . . خداع الذين غيروا نسق الأحداث التاريخية عن مجراها الواقعي ليتمكنوا من اختلاق علاقات غير طبيعية يتبلور بها تمويه تهمة أو شنعة .

فالذين يعتبرون الفتوحات الإسلامية على سبيل المثال غزواً بربرياً : لا يستطيعون أن يبلوروه بهذا المفهوم إلا بارتداد زمني يغيِّر النسق الواقعي ، فيعتبرون الفاتح العربي المسلم صنو العربي الجاهلي ، أو يعتبرون الفاتح المسلم الكردي صنو البدائي الكردي ، فيموهون بعلاقة البداوة العربية أو الكردية ، فهذا نموذج بسيط للعلاقات المختلقة .

أما أن يُستنبط مفهوم البربرية من واقع الفتوحات الإسلامية – إذا بقيت على نسقها الواقعي – فدون ذلك أكل القتاد ؛ لأن الكاشحين يفاجَؤون في البداية بمشروعية الحرب وإنسانيتها ، ويفاجَؤون في النهاية بمثالية التعامل ، وعالمية المبادىء ، مع فعالية المشاركة بالأشواق الحضارية والفكرية .

وبعكس ذلك دولة حضارية عظمى لا يتجاوز عمرها المعتبر خمسين عاماً

.. وسلاحها الوحيد - الذي يحمل مضمون الإرهاب الفكري - هو التقدم العلمي المادي .. إنها تمثل أقبح مفهوم للبربرية ولكن بقيد الذكاء .. أي البربرية الذكية .

إن حلمها الذي يروعه المعسكران الشيوعيان - يوم كان هناك معسكران - ، وينغصه المبادىء الديغولية التي سمقت بقامة أوربا : هو إيجاد نظام عالمي بقيادتها (١) ، والآن تحقق لها ذلك .

ولكن أي نظام هذا تهش وتبش له عقول المفكرين ؟ !.

إنه نظام المصالح العليا لتلك الدولة العظمى .. أي مركبا الغطرسة العسكرية والجشع الاقتصادي ؛ ولهذا كانت صداقة رجال الأعمال الأمريكيين شرطاً جوهرياً في برنامج سياستها التحليلية .

وهذان المركبان يحميان نفسهما بنفسمها ، فالمركب العسكري كان شعاره (العصا) عصا روزفلت الغليظة الذي لوح به الدكتور كيسنجر فيما بعد .. ومن المركب الاقتصادي كان شعار بريق الدولار الذي رفعه الرئيس (تافت) .

وحينما يفلس الشعاران وينتجان عكس أهدافهما تأتي حكمة السياسة التحليلية النفعية التي ترعى (الوفاق التنافسي !!) .. وهي رعاية تحقق معنى باطنياً غير المعنى اللغوي الظاهري لكلمة (وفاق) .. إنه استقطاب الدول غير المنحازة لإدارة مشاهد المفاوضات النشيطة .. ومن ثم يبقى خارج الدول غير المنحازة الأطراف التالية :

١ - المعسكران الشيوعيان .

---

(١) كتبت هذا قبل سقوط روسيا الشوعية بسنوات .

وهذان أمرهما سهل في نطاق الحوار الديبلوماسي ٠٠ لأن الفريقين مع المعسكر الغربي لايريدان مواجهة مدمرة ، وهذه المواجهة غير المرادة صورة من صور دفع الله الناس بعضهم ببعض ، فهو وازع بمراد الله الكوني ٠

وتُضفِّر علاقات الحوار من مرائر توازن القوى ، وحسن الفلسفة للضغوط الخفية التي تحكم العالم ٠

وما دامت المبادىء متفقاً عليها : فالاتفاق على الوسائل لا يستعصي على الحوار (٢) ٠

٢ - المعسكر الأوربي الذي أنهض قامته ديجول ٠

وهذا المعسكر مهما اشتدت حدة الحوار معه بباعث من الطموح الأوربي القومي والإقليمي : فهناك في النهاية ضغوط مصيرية تحتم الوفاق والتنازلات ٠٠ فمن ذلك البعد التاريخي لحلف الأطلنطي ، والالتقاء في الأهداف الإمبريالية (الرأسمالية العالمية) ، والعبودية لشعار الصليب التي يترتب عليها التدخلات

---

(٢) الحوار بفتح الحاء وكسرها الجواب ، وتكون مرادفة للمحاورة ؛ لأنها جواب من طرف على كلام طرف آخر ؛ إذ لا يكون الجواب جواباً إلا إذا كان مسبوقاً بسؤال طرف آخر ٠٠ والمحاورة تكون من طرفين ٠

وقالوا : ضعيف الحوار ٠٠ بمعنى ضعيف المحاورة ٠

والحوار بالفتح بمعنى الحوير للمبالغة ، وبالكسر بمعنى النزاع ٠٠ انظر معنى صيغة فعال بالفتح ، وفعال بالكسر في ديوان الأدب للفارابي ١/٨٥ - ٨٦ ، وانظر الحوار بمعنى الحوير والمحاورة في تاج العروس ٦/٣١٦ - ٣١٧ ٠

ولعل وجه الاشتقاق أن رجع الكلام بين طرفين يوقع في الحيرة ٠

وإنما حررت هذا البحث لأن بعض الفضلاء بمكة المكرمة أنكر عليَّ استعمال الحوار بمعنى المحاورة ، وقال : لم يرد ذلك في اللغة ! ٠

العسكرية والضغوط السياسية من منطلق حماية الأقليات ، كما يترتب عليها التضليل الفكري من منطلق التبشير .

وكل ذلك يشكل في النهاية منعطفاً مصيرياً هو تكتل القوى الصليبية في مواجهة التحدي الأيدلوجي الشيوعي .

٣ - الأمم الفقيرة وهي متروكة لرعاية المنظمات الإنسانية (الصليبية) المتعددة الأنماط ، لتضم الشعوب إلى النصرانية .

وهذا وحده كاف لاستقطابها عن قناعة مع عمل السلطات السياسية في كسب الزعامات والقيادات .

٤ - الأمم النامية التي لم تتبن شعار اللا انحياز .. وأقل ما في استقطابها أن تكون مهبطاً للمركبة الاقتصادية للدولة العظمى .. تنهب مواردها وخاماتها ، وتستعمرها ، وتستنزفها بصناعاتها .

يضاف إلى هذا تضليلها للقيادات بقدرتها على قلب الأوضاع ، وتشجيع المناهضات الداخلية مع تجميدها ؛ لتكون كوتد جحا ، ولتكون فرساً يكسب الرهان .. لاسيما في البلدان التي يوجد بها أحزاب .

وإن أعظم صفعة للمنطق السياسي التحليلي لتلك الدولة العظمى : أن تتنبه طلائع المفكرين في البلدان النامية إلى المحافظة على قياداتها التاريخية الوطنية والالتفاف حولها ، ومطالبتها بنواقص الحقوق بالحوار الصبور العاقل الذكي المخلص للمبدأ والقيادة معاً ، والأخذ من عجزها الظرفي في كوادرها البشرية ، أو في الضغوط السياسية حولها .. إلخ إلى لحظة القدرة وارتفاع العذر .

والقناعة بتدرج القيادة إلى الأمثل ولو على المدى البعيد .

وكما تلعب (٣) المنظمات الإنسانية دورها في الأمم الفقيرة : يلعب شعار آخر دوره في الأمم النامية ، وهو شعار الرسالة الاستثنائية للدولة العظمى ، وهو استثناء تمتزج فيه التحليلية والأيدلوجية معاً ٠٠ فهو تارة يفسر بخدمة العالم الثالث ، وله عدة أوجه كالوجه القبيح الذي أعلنه أيزينهور عن الفراغ في الشرق الأوسط .

ويفسر تارة من منطلق صليبي بحماية الأقليات ، ولا يراد بالأقليات في الحقيقة غير الأقليات غير المسلمة في بلاد العرب والمسلمين !! .

والدولة العظمى لاتؤمن بمشروع دائم للسلام كما حلم به المفكر العالمي أمانوئيل كانت في رسالته مشروع دائم للسلام ٠٠ ليس هناك مفهوم لمشروع سلام دائم شامل ، وإنما المطلوب استمرار استقرار عالمي ، وهو الوفاق بين العالم الأقوى .

فيدخل في هذا المفهوم تجميد طموحات الشعوب ، وإشعال الحروب بينها ، ولكن بشرط أن تظل مضبوطة النتائج بحيث لا تدفع أحد طرفي العالم الأقوى إلى التهور ٠٠ وهذا هو مفهوم الحرب المحدودة !! .

والحرب المحدودة وإن حملت كل معاني الكارثة والبؤس والثكل : تظل تحقق المصالح العليا للدولة العظمى بمعادلات منها :

أ - تسويق خزائن الأسلحة ، ويشترك في هذا المنطق الإمبريالي والأيدلوجي معاً .

ب - الاطمئنان على نجاح التصنيع !! .

---

(٣) هذا التركيب مأخوذ من واقع المسرح في تأدية كل واحد دوره ٠٠ ويكون ذلك عن حذق ومهارة ؛ ولهذا قيل لأبي براء العامري ملاعب الأسنة ؛ لبراعته في الفروسية .
وهذا التركيب بلاغي صحيح ، ولا حجة لمن أنكره .

جـ - رد الشعوب إلى حظيرة الاستقطاب للدولة العظمى ابتداء بمبادرات الصلح ، ثم بالشروع في إزالة آثار الحرب ، وعمارة الأطلال بصفقات رابحة أو تسويق أيدلوجي ٠٠ والربح للدولة العظمى ! ٠

د - المساومة على قلب موازين الحرب بمقولة (حماية المصالح للدولة العظمى) ٠

هـ - إحياء الوثنية في قلوب الشعوب والقيادات ، وإشعارها بضرورة الانتماء المحكوم بقانون (توازن القوى) ٠

قال أبو عبدالرحمن : وأرجو أن لا يتسانجني القراء إذا ذكرتهم بظروف الحرب العالمية ، وأنها في حقيقتها غزو صليبي لتاريخ إسلامي محسود عاش ثلاثة عشر قرناً ونيفاً ، وأن أمم الكفر المتكاتفة على تحطيم هذا التاريخ أصبح دورها بعد ذلك تقاسم المكاسب ٠

ومن البدهي أن تكون الاحتياطات المستقبلية عن نمو ذلك التاريخ الذي كان هدف الحرب : من أبجديات المعسكرين المنتصرين ٠

ولذلك كان تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين نتيجة إيجابية للحرب العالمية ٠

وبهذا المنطق التاريخي الحتمي يستحيل أن يكون تحصيل الحق العربي عن طريق الانتماء ٠

ومن المستحيل أيضا أن تكون حفنة التراب العربي المغتصبة هي الطموح العربي ،وأن تظل شعاراً للانتهازيين والطائفيين والعلمانيين ومغتصبي الكراسي ٠

إن الطموح العربي حقيقة في إعادة المناخ للقيم التاريخية السليبة ، ومن ثم يتبعها بداهة كل حق مسلوب من الرقعة ، أو حرية الكلمة ،أو صيانة الموارد ،

أو عدالة التعامل ، أو حق مصير القرار .

ومقررو مصير الأرض المغتصبة يعلمون أن قيام الصهونية في بلاد العرب إنما هو قيام معسكر بلا دولة ؛ لأن اليهود في فلسطين قبل وعد بلفور الظالم إنما يعبر عنهم – بلغتهم العبرية – بكلمة البيشوف .. أي المواطن اليهودي في دولة عربية .

وعداء اليهود للنصارى ليس بأقل من عدائهم للمسلمين بل للعالم أجمع ؛ لأن كل من عدا اليهود (جوييم) يحق استعبادهم ، والتقرب إلى الله بظلمهم ، وتخريب أديانهم ، وبلبلة عقولهم .

إن الشعوب في المعسكر الشيوعي تعيش حنيناً مكبوتاً إلى روحانياتها ، وسيعي المفكرون هناك ألاعيب اليهود ابتداء من (النهلستية) التي ناوشت روسيا القيصرية النصرانية ، وانتهاء بمجازر ستالين الذي تمم ما بدأته اللينينية عسكرياً ، وبعض ما حلم به ماركس فكرياً .

وستنتبه النصرانية في مشارق الأرض ومغاربها إلى خطر هذا العنكبوت الأسود .. أعني أحابيل الصهيونية وأهدافها الرجعية البربرية .

سيتنبه العالم كله أجمع إلى قسوة المغضوب عليهم في تدمير الأرض والعيث فيها فساداً ، وحينئذ لن يكونوا أرحم بهم من هتلر .

ولابد من معادلة تبرز بها القوى الكامنة في سرة الأرض بشرياً وموارد .. أعني بلاد العرب والمسلمين ، فهي مازالت ولن تزال سرة الأرض ، وإليها المرجع في تقويم السلوك البشري والانحراف الفكري ، ومواردها وخاماتها عصب الحضارة المادية ، وكوادرها البشرية يمثلون الجندي المجهول في معامل الغرب .

وهي سرة الأرض بأهميتها الاستراتيجية ، وعلى ذلك مدلول شرعي

عمقه سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾.

نعم إن المعسكرين الغالبين (٤) اليوم هما أفقه الناس بالضغوط الخفية التي تحكم العالم .

ولكنه فقه سطحي سيصل إلى اللباب حينما يفقه المعسكران نفسهما الأخطبوط الصهيوني الذي يحكم المعسكرين ذاتهما .

أما المعسكر الشيوعي الذي يصنف المستقبل تصنيفاً تاريخياً حتمياً ينتهي بانتصار الشيوعية فيكفي في غربلته أن يُطالب بتفسير أكثر من حضارة جبارة سادت ثم بادت .. فبأي وجه يُستثنى التفوق الشيوعي فضلاً عن التفوق الأمريكي من هذا القانون التاريخي ؟! .

أما نحن المسلمين فعندنا أن سنة الله الكونية لا تتبدل .. وخالق السنة الكونية جل جلاله أخبرنا بسنته الشرعية أن كل حضارة تحاد الله يباغتها قدر الله ، وأن كل دولة تقيم دين الله تظل في عزها حتى تعظم حيدتها فتصيبها الفتنة والتبدد بقدر ما تعود إلى نصابها .

ثم بأي وجه تفسر الشيوعية الارتداد عن مبادىء ماركس مع أنها لم تحقق مقاصده في أوج مجدها العسكري ؟! .

***

إن سيادة التاريخ الإسلامي سيادة مرحومة مشكورة ، وستأتي أجيال تلعن الحضارتين البربريتين الراهنتين .

---

(٤) إنما سقط أحد المعسكرين أيدلوجياً وبقيت القوة والحقد التاريخي معاً .

وواقعنا المأزوم لا يمنع – ولا ينبغي أن يمنع – من التغني بالبطولات في تاريخنا التراثي ٠

إلا أن تاريخنا ليس معصوماً من ظواهر النقص التي تعتور التاريخ البشري ، فقد دخله من عوامل الترف والإغواء والأهواء الشخصية ما لا يجعله خالصاً للبطولة ٠

ولكن بالمقارنة بتواريخ العالم على امتداد الزمان وعرض الرقعة نجد أن تاريخنا بكل ما فيه من ظواهر النقص أمثل تاريخ عرفته البشرية وأسعده وأرحمه إلى مطلع القرن التاسع عشر منذ حملة نابليون ، فقد بدأ تاريخنا حينئذ القهقرى ، وانحلت خلافته ، وتفككت جامعته الإسلامية ، وتكاد تكون الجامعة العربية في خبر كان ٠

ولا أغالي إذا قلت إن عرب الجاهلية أعز وأمنع على أرضهم من عرب اليوم في أنحاء رقعتهم بعد ذلك التاريخ الجهوري ٠

والسر في مثالية التاريخ العربي الإسلامي أنه تاريخ أمة لم يقضِ تدبير الله الكوني استئصاله كما استأصل الأمم البائدة ، وضمن لها أن لا يستأصلها إلى أن تقوم الساعة ، وأن يظل منها طائفة على الحق منصورة لا يضرها من خذلها ٠

ودينها خاتمة الأديان ، وأعمُّها ؛ لأنه للناس كافة ٠٠ وأوعبها للوقائع المستجدة ؛ لأن الله جعل لأصوله من السعة والشمول ما يليق بهيمنته على الزمان والمكان ، ورسولها ﷺ أفضل الرسل ٠

والتاريخ الإسلامي نصير العلم ؛ إذ أصبح فكر الحضارات وعلومها تراثاً عربياً مذللاً ٠

والتاريخ الراهن تاريخ علم مادي وحضاري في أياد غير أمينة حيث أصبح

العالم الأقوى – والقوة لله – مدللاً مريضاً بالنرجسية ، فالملايين تموت جوعاً وأكياس الحبوب تلقى في البحر حتى لا يهتز السوق ، والحروب تصنع في العالم الثالث لأتفه الأسباب لأجل تجريب السلاح وتسويقه ، والراحة النفسية معدومة ، والسياسة لا أخلاق لها ، والعبرة بالدولار لا بالقيم ٠٠ وكل هذا الوباء لا يعرفه تاريخنا في أضعف مراحله ٠

ومرجعيتنا اليوم إلى اكتشاف كوني ، واختراع وتصنيع ٠٠ ومصدر هذا المطلب التاريخ الراهن للأمم القوية ، ولم نأخذ منه ولو بيد يسار مشلولة ٠

ومرجعيتنا أيضاً إلى بطولات رجال مؤمنين ، ومواقف أريحية ، ودين معصوم ، ومقاصد شرع رباني تهدي مسيرتنا نظاماً وإدارة ٠٠ وكل هذا لا نحتاجة من هيبية السلوك الإباحي الراهن ، وإنما مأخذه من تاريخنا ٠

فيحق لأولئك المؤرخين أن يتغنوا ببطولات تاريخهم ، ويحق لهم أن يتجرعوا مرارة الفشل إذ عجزوا عن إعداد القوة اكتشافاً واختراعاً ، وأن يندبوا عصرهم المستضعف أمام كل أغلف لم يقل يوماً ما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ٠

وإذن فباعث التغني بتاريخنا الغابر ليس هو الشعور بالفشل فحسب ، بل يضاف إلى ذلك الحاجة الفعلية لعزائم ذلك التاريخ ٠

الفصل الثاني : شيئ من المعادلة بين الوحدة العلمانية النظرية ، والوحدة الإسلامية في الغابر ، ووحدة الواقع العملي بجزيرة العرب :

[فقـد كان في نجد قبيـل ظهوره
من الهرج ما يبكي العيـون تفاصله
تهارش هذا الناس في كل بلـدة
ومـن يتعـد السور فالـذئـب آكلـه
فما بـين مسلوب ومـا بين سالب
وآخــــر مقتـــول وهـــذاك قاتلــه

ابن عثيمين في الملك عبدالعزيز
ـ رحمهما الله ـ]

قال أبو عبد الرحمن : لا ريب أن الأمة التي كانت واحدة هي الأمة التي كانت مجزأة ، فهويتها أنها عربية إسلامية ‥ دينها الإسلام الذي بلَّغه العرب بلغة أمة العرب ٠

ولا ريب أن الحلم بالوحدة هو حلم بأمة عربية إسلامية موحدة ، وحلم يسحق كل دخيل قضى بفرقتها وتجزئتها مما ينافي عروبتها وإسلامها ‥ بيد أن الحزبيين لا يرون الوحدة بالعودة إلى ما قبل التفرق والتجزية ، وإنما يرون تفتيت الهوية ومسخ الذات لتكون وحدة قرود مجردة من الإنسانية (٥) ٠

يقول ميشيل : « تصورنا الوحدة العربية تصوراً انقلابياً ثورياً ‥ لم نتصورها تصوراً سياسياً بأنها جمع أعداد ‥ جمع كميات بعضها إلى بعض ؛ لأن الأشياء الميتة إذا جمع بعضها إلى بعض فلا تنتج حياة ، ولكن إذا حركنا الروح : بعثنا الروح في هذا الشعب ‥ في هذا المجتمع ‥ عندها يكون الجمع مجدياً ومقوياً ، وعندها يكون الجمع ممكناً ؛ إذ لا إمكان للتوحيد في حالة التأخر والجمود وهبوط الروح ‥ لا يمكن أن يتحد اثنان إذا لم يكن فيهما بذرة مهما تكن بسيطة من النزوع الروحي ؛ ليعرفا أن في الحياة شيئاً أثمن من الأنانية المحضة ، وبالتالي يمكن أن يجتمع اثنان في سبيل غاية مشتركة أعلى من أنانية كل منهما على حدة ٠

فالوحدة العربية في نظرنا إذن هي نتيجة للانقلاب الروحي في المجتمع العربي ، وهي أيضا في نفس الوقت سبب من أسباب هذا الانقلاب ‥ هي نتيجة له ، ولكن هي بحد ذاتها يمكن أن تكون دافعاً مثيراً من دوافع الانقلاب (٦) ٠

---

(٥) انظر كتابي « التفريغ أولاً » ٠

(٦) البعث والوحدة ص ١٩ ٠

قال أبو عبدالرحمن : والغوغائية التي انساقت وراء نفاق الحزبية ودجلها استنامت وتخدرت بعبارات تركوا تفسيرها لمعهودهم مثل قول الدجال : « النزوع الروحي » و« الانقلاب الروحي » ، وجهلوا أو تجاهلوا تفسيرها النصي لدى الحزبيين تفسيراً يسقط كل معنى روحي في المعهود المألوف ، ويجعلها روحية علمانية حمراء بشهواتها وجحيمها .

ويزيد نفاق الحزبيين ودجلهم في دعواهم أنهم أرباب إثارة فكرة الوحدة ، وهم يعلمون أن الوحدة قلقُ وهمٌّ أمتنا منذ عصوف زوابع التجزئه وإشراف الحربين العالميتين ، وأن الأمة كانت تتخبط بين وحدة الجامعة العربية ووحدة الجامعة الإسلامية ، وأن العدو الأجنبي – عدو النحلة والملة – يضع للوحدة الحبائل ، أو يستغل شعارها في فرص انتهازية .

والحزبيون جاؤوا وكل قطر مفعمة مشاعر أهله بأن الوحدة طموحهم ، وأن غيابهم عن القيادة بين الأمم غَبْنُهم الأليم وذلُّهم وعارُهم ، وأن كل قطر سيكون مشلول الحركة والإرادة إذا لم يكن حلقة ملتحمة في سلسلة النظام العربي الإسلامي .

هذا شعور متأجج لايحتاج إلى إثارة تُبيِّن أهميته ، وإنما يحتاج إلى عمل معقول يحققه .. ولو دعا الحزبيون إلى غير الوحدة لما وجد لهم من العرب ضحايا .

وإنما استغل الحزبيون هذا الشعور وجعلوه شعاراً ليحققوا من مداراة الأمة ومخادعتها سبيلاً إلى الكيد .. ولا أعظم كيداً من مسخ الأمة وتفتيت كيانها .

فكل لغط للحزبيين عن قيامهم بإثارة فكرة الوحدة أول دجل لهم ونفاق في ميدان الوحدة (٧) .

---

(٧) انظر نماذج هذا الدجل في كتاب البعث والوحدة ص ١٩ – ٢٠ .

ومثل ذلك مقاومة الاستعمار الفرنسي ٠٠ وكل استعمار في بلد العرب والمسلمين كان هماً عربياً إسلامياً ٠٠ أصدقُ مَن ضحى فيه مَن اجتمع له الإسلام والعروبة ٠

وهكذا هاجم المقاومون الأنظمة الداخلية التي مالأت الاستعمار ؛ لأنها تستفيد منه ٠

بيد أن الحزبيين تبجحوا عام ١٩٥٦م (ولم يكن لهم يومها خطر عسكري أو سياسي يذكر) بأنهم وراء إنشاء فكرة مقاومة الاستعمار وتطبيقها !! (٨) ٠

ومثل عبارة النزوع الروحي الاتكاء على عبارة «العرب أمة واحدة» ٠٠ قال ميشيل : « النظرة الصحيحه إلى الوحدة - في اعتقادي - هي أن يكون أساس النهضة العربية الجديدة (أساس الانقلاب العربي المنشود) قائماً على هذا المبدأ الذي لا يجوز التفريط فيه أو التهاون فيه : بأن العرب أمة واحدة ، وبأنهم في أي جزء من أجزائهم ، وفي أي مشكلة تعترض أي جزء يجب أن يشعروا أو يفكروا ويعملوا بهذا الواقع ٠٠ بهذا التصور ٠٠ بأنهم إن لم يكونوا عملياً موحدين فإنهم روحياً موحدون ، وأنهم يعالجون مشاكلهم على أساس أنهم سائرون نحو الوحدة ، ويعملون لها بجد وبنضال » (٩) ٠

قال أبو عبدالرحمن : ماقيمة الشعور بأمة عربية واحدة إذا كان الانقلاب الكاثولوكي يفرغها من مضمونها المعهود وينفخ فيها روح العلمانية والمسخ ٠

اسمعوا ماذا يقول ميشيل عن الفكرة الانقلابية التي لم تبق للعربي ديناً أو تاريخاً ٠٠ يقول عن القضايا العربية : « قضيتنا قامت على أساس أنها قضية

---

(٨) انظر هذا الادعاء في البعث والوحدة ص ٢٢ - ٢٣ ٠

(٩) البعث والوحدة ص ٢٢ ٠

واحدة ، وأن حلها هو رهن بتحقيق انقلاب عربي ، انقلاب بالمعنى العميق ، لا ينحصر بالسياسة ، وإنما يتناول الفكر والروح ٠٠ والتربية الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والسياسية في نظرنا هي التعبير عن موقفنا الانقلابي في جميع هذه الأوضاع والحالات » (١٠) ٠

ولهؤلاء الحزبيين قدرة على تلفيق السياق التاريخي والافتراء عليه ، فهم يستلون الشعور العربي الهائج ضد حيلة الاستعمار في التجزئة على مبدأ فرق تسد وكأنهم خالقو ذلك الشعور ومؤججوه ٠٠ يقول ميشيل : « الدول الاستعمارية وافقت على الاستقلال في سورية ولبنان بشرط التجزية ، وأوجدوا لهم الجامعة العربية ٠٠ كل دولة تنافس الأخرى وتضع العراقيل في سبيل أبسط المشاريع التوحيدية » (١١) ٠

قال أبو عبد الرحمن : أما أن الاستقلال كان بشرط التجزئة فسياق تاريخي صحيح ، ومن ثقافة العامل ورجل الشارع ٠

وأما أن الاستعمار وضع الجامعة العربية : فالجواب : كذب عبد الكاثولوكية وأفك ، بل هي من ترميم الأمة الخيِّرة المغلوبة على أمرها ٠٠ ذات العين البصيرة ، واليد القصيرة ٠

فهذا تزييف تاريخي يصاحبه إسقاط تاريخي ، وهو إسقاطه الإفادة بأن الاستعمار الذي رضي بالاستقلال مع التجزئة زرع في الأمة قيادات ليست من فطرتها ، وحُمَّال مذاهب ليست من دينها؛ ليمسخوا هوية العربي ، ويفتتوا كيانه ؛ إذ أصبح من العسير نقله إلى دين آخر ٠

---

(١٠) البعث والوحدة ص ٤٣ ٠

(١١) البعث والوحدة ص ٢٨ ٠

والحزبيون أقبح وأنحس وجه صفيق وجد في تركة الاستعمار ليدعو إلى وحدة المسخ ٠

والحزبي حينما يدعو إلى وحدة المسخ فليس لديه شيء يخاف عليه ، ولهذا يركب كل ذلول ووعر ٠

أما العربي فلديه ماهو أغلى من نفسه وماله وأهله وولده ، وذلك هو عروبته بشرطها الإسلامي ، فلا يقدم على الوحدة إلا وفق شرط تم الاتفاق عليه في المعهود العربي ، وهو العود بالوحدة إلى ما كانت عليه قبل التجزئة من واقع عربي إسلامي ٠

أما الطروحات الكاثولوكية والصهيونية والمذهبية والشعوبية والطائفية والأقلية العرقية : فيرفض العربي المسلم أن تكون الوحدة في إطارها ، ويرفض أن يكون القانون يبيح طرحها ؛ لأن الوحدة العربية الإسلامية معهود عرفي في عقل الأمة وتاريخها ، وحق من حقوقها ، والأرض أرضها ٠

***

قال أبو عبدالرحمن : خاصة المؤرخين والمفكرين مثبتون بقواطع التوثيق أن هناك منظمات سرية أبرزها منظمات اليهودية التي تبلورت في منظمات الصهيونية السياسية ، وهي منظمات عديدة ذوات ميادين وأغراض مختلفة ٠

وكان الذين يعايشوننا في شرقنا العربي والإسلامي جمهرتهم من عامة اليهود ٠٠ أما العقول العلمية من اليهود فكان موطنها بلدان العالم المتقدمة في أوربا وأمريكا ، فلهم السبق في الاختراع والاكتشاف والفلسفات ٠ وكان شغل الصهيونية السياسية واهتمامها منصباً على التالي :

أ - وجوب أداء عمل يحقق عقيدة يؤمنون بها في دينهم ، وهي أن الفساد سيعم العالم تصوراً وسلوكاً ونظاماً وحكومة ، وأنه يظهر آخر الزمان المسيا المنتظر فيحكم العالم بديانة يهودية لا يؤديها إلا أهلها .. وبقية العالم «الجوييم» همج عبيد لليهود .

وهم يؤمنون بقرب نهاية العالم لمضي القرون التي أحصوها باجتهادهم ، ولم تظهر بوادر خراب العالم الذي وعدوا به .

فقالوا : لن يحقق الرب وعده ونحن قاعدون ، فلابد من سعينا نحن أنفسنا في إفساد العالم ليسرع مجيىء المسيا ، فكان سلوكهم المنبثق عن عقيدتهم من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف بعكس سلوك أهل الأديان السماويه .

وكانت عقيدتهم أن لا يدعوا الناس إلى اليهودية ويبشروا بها ؛ لأن اعتناق اليهودية عندهم صلاح ، فإذا صلح العالم لم يتحقق الوعد بحكومة يهودية عالمية تحكم عالماً فاسداً .

ب - لم يعبأوا بالوثنيين تصوراً وسلوكاً لأنهم على باطل محض ، وقد يكرهون حركات التبشير في تنصيرهم ، ولكن ذلك أحلى الأمرَّين مادام تنصرهم على القناعات الحالية بالطروحات اليهودية التي جعلت اليهود بريئين من قتل عيسى عليه السلام الذي رفعه الله ، وما دام عيسى جاء بعد موسى عليهما السلام لإكمال الناموس ، وما دام ذلك هو البديلَ من دخولهم في الإسلام .

ولهذا يقفون لدعوة الإسلام بالرصد متوارين خلف غيرهم .

جـ - أهل الكتاب في العالم المتقدم مشاركون لليهود ، متفوقون عليهم (من أجل الكثرة) بالاكتشاف وما يحقق القوة والمتعة من الاختراع ؛ فكانوا

لايكيدون لهم إلا بالحيلة ٠٠ بالسعي الحثيث إلى التحالف ضد المسلمين ، والطمع في مواردهم وبلدانهم ،وتشويه أحكام الإسلام ،ووصمه بالهمجية والدموية والتحذير من قيام دولته ٠

وثمة حلية ثانية ، وهي سرقة دينهم منهم وإبقاؤهم على مجرد التسمي به ، أو ممارسته على تصورات ترفع حاجز العداء بين الطرفين ٠

وكان سبيل ذلك تحلية الإلحاد في التصور ، والدفع إلى الإباحية في السلوك ؛ ولهذا كانت الفلسفات التي تبنتها الصهيونية في العالم أو أفرزتها مسبقاً فلسفات إلحادية تتجدد في كل فترة بمذهب آخر يتفق في الهدف ويختلف بالعنوان والمصطلح ، وتغليب جانب إلحادي على آخر ٠

كما كانت فلسفات إباحية باسم الحرية والديموقراطية والوجودية التي أنتجت أن الكون والحياة عبث ، فسهل على الفرد أن يفعل ما يشاء ٠

ومن السبيل أيضاً الإمعان في تسهيل وإحضار كل المتع المحرمة ، واستغراق حيوات الناس بالترفيه اللاهي والمحرم بحيث لا يبقى للفرد من العزائم إلا التخصص الأصم ، والانهماك في مجال الحرفة ٠

د - السعي الحثيث في امتلاك المقومات التي تحكم الأفراد والمجتمعات بالترغيب والترهيب ، وتنتج ضغوطاً كونية خفية المصدر عاصرة تتحكم في العالم كالمال وصنع القرار والتخصص في القانون ، والإعلام بما فيه البث الإباحي والقدرة على توفيره والإغراء به تطبيقاً ٠

فكانوا أهل المال والمراباة والقابعين وراء الأزمات الاقتصادية ، وأهل المحاماة ومسوقي وسائل الفحش ، والمنتجين أو المتبنين للعقاقير المدمرة باسم الطب ، وكانوا المسوقين لعبث الأطفال الجالب للدمار من صنوف المخدرات ٠٠ وكانوا يشترون الأصوات في انتخابات الحكم بالأموال ، ويشترون

ضمير المنتخب ٠٠ ويتألقون في فنون المحاماة ، وسن الأنظمة والقوانين ، واتخاذ طرق الإرهاب والتخويف بإسقاط ناس بالتشهير ، واختلاق الفضائح وتكبيرها ، والتصفية الجسدية عن طريق المافيا وغيرها ، واتخاذ كل تجمع سري أو شبه علني لا يظهر فيه الصهيوني متدنياً ، بل يتحلى بأي دين ، أو يبدو ملحداً إباحياً حسب مقتضى الحال ٠

وأنت ترى الفرد في العالم الأقوى عبدالقروض الربوية منذ نشأته ، فلا يوفر سكناً ولا سيارة ولا ثلاجة ٠٠ إلخ إلا بقروض ربوية متوالية متضاعفة يظل عبداً لها مدى عمره ، وما فضل تسرقه شركات التأمين باختلاف وجوه التأمين ٠

هـ - التحالف مع أهل الكتاب فكرياً وسياسياً على المسلمين بصدهم عن دينهم بمختلف حيل التضليل والتسويل ، وزرع العملاء بينهم ، وإعداد قيادات تحكمهم باسم شعارات تبنتها الغوغائية ٠٠ ثم العمل بآخرة على محاصرتهم دينياً بافتعال الأزمات الحربية ، وتحقيق الأزمات الاقتصادية ، والتهديدات العسكرية باسم رعاية الديموقراطية وحقوق الإنسان والحيوان ٠

و - يختلف تعاملهم معنا ومع العالم الأقوى من أهل الكتاب ٠٠ فهم مع العالم الأقوى حذرون جداً ٠٠ يتعاملون مع أهل علم دنيوي وقوة ، ولهذا يحرصون على جانبين :

أولهما : أن يكونوا تحت حمايتهم ودعمهم بكل المسوغات التي أفلحوا في إقناع العالم الأقوى بها ٠٠ من تجمع أهل ديانة سماوية في دولة واحدة بعد الغوتو والتشريد ، والقيام بدور البوليس ، ومحاصرة التجمع العربي ذي الدين المخوف منه ، وللعمل على قيام دولة العالم الواحدة التي يشترك فيها أهل الكتاب ٠

وثانيهما : أن يظل لهم في العالم الأقوى النفوذ الأكمل في صنع القرار ، وأن يظل الحليف على عبادة المادة والإيمان بالديموقراطية والعلمانية اللتين تلغيان عزائم الدين ، وتفصلان الدين عن الدولة والحياة ٠

أما العالم العربي والإسلامي فلا يعبأون به لانقسامه ، وزرع القيادات فيه ، وتخلفه علماً دنيوياً وعسكرياً ، وإحاطة طموحه برقابة الحليفين ؛ ولهذا فهم يواجهونه بالعداء الإعلامي والعسكري تارة ، وبشراء العملاء بالتضليل والترغيب والترهيب تارة ، وبالتواري خلف الحليف تارة ، وبالتسلط بشعارات المبادىء التي كانت واجبة أو مستحسنة لدى العالم ٠٠ مما فيه سرقة الأديان والأخلاق ٠

وتبنت الصهيونية السياسية التجمع القومي المفرق لوحدة الأديان ، وتبنوا دعاية الإخاء الإنساني بشعار الحرية ، فأسقطوا خلافة المسلمين والدولتين الدينيتين للكاثوليك والأرثوذكس ، وضللوا الشعوب ، فدمرت بأيديها قياداتها التاريخية التي فيها عصبية الأمة قومياً ودينياً ، والتي تحول دون قيادة العميل المأجور أو المضلل ٠

وحذو القذة بالقذة تردد صدى القومية العربية وتبلور في عمل سعد زغلول ثم جمال عبدالناصر ، وظلت القومية ستاراً للطوائف والعرقيات والملل ٠

ولو كانت القومية التي تبناها عبدالناصر تعصباً لجنس العرب مع بقاء الكيان الديني والتاريخي للأمة لقيل : هذه معصية ولا أخوة إلا بالإسلام ٠٠ ولكنها كانت قناعاً لكل فوادح التاريخ الناصري ، وكان شعارها علمانياً : الدين لله والوطن للجميع ٠٠ وإذا كان جمهور الجميع مسلمين فأحكام الشريعة عليهم ولهم معطلة باسم الحرية الفردية ٠

ثم أصبحت القومية ذاتها عقيدة في حركة البعث ، ففرغوا العروبة من مدلولها التاريخي سوى أخلاق الجاهلية الأولى ، وجعلوا الدين الإسلامي فعل عقل عربي ؛ ولهذا فالإسلام مرحلة تاريخية ، وللعقل العربي أن يبدع ديناً جديداً ، أو يستبدل ديناً بدين ، أو لا يجعل الدين قضية .. وكل ذلك حسب مقتضيات العصر .

والصهيونية السياسية صاحبة فلسفة القوميات : تأبى اتحاد العرب على القومية ؛ ولهذا تحكم قبضتها على القيادات اختياراً واستمراراً أو استبدالاً ، ولهذا أيضاً فكل حكم قومي يجعل العروبة ثانياً والوطنية أولاً .

إن المشروع القومي لم يَخْبُ في قلوب الذين يشعرون بالهزيمة ؛ لأنهم جنس عربي من دول عربية يريدون الوحدة ، ويشعرون بالغبن أمام العالم الأقوى المتحد ، وليس عندهم التزام إسلامي إلا مجرد الانتماء والتعاطف .

ويُخشى أن تكون القومية خطة للحليفين في مصالحة بين التيار الإسلامي ، والغبن القومي ، وجبروت العالم المستكبر .

والمستقبل بحول الله للمشروع الإسلامي ؛ لأن الشعوب العربية والإسلامية المغلوبة على إرادتها تريد ذلك .

لكن التيارات الإسلامية الراهنة المتصارعة مع نفسها ومع غيرها لن تحقق طموح المسلمين إلا بعد انتقاء يستبعد الانفعالية ومكابرة الواقع وانتقام الصبية ؛ فإن أصحاب الدعوة الأولى حال الضعف بمكة والقوة بالمدينة لم يكونوا قطاع طرق ولا غدارين ولا إرهابيين .. ولابد أيضا من سلفية يصح فيها التصور فيستقيم السلوك .

ولن تحقق أيضاً طموح المسلمين إلا بالتحزب لمجتمع سلفي راهن لم يختل نظامه السلفي عقيدة وسلوكاً طيلة قرني انتهابِ تركة المسلمين وخلافتهم .

ولابد أيضا من التفاف على دولة مسلمة حققت نموذج التجمع الإسلامي والدولة الإسلامية منذ قامت ، فلم ينفصل الدين عن الدولة ، ولم ينفصل عن الحياة ، وهي الآن الوحيدة التي لا وزر لها إلا بلطف من الله أمام مضايقات أعداء الملة الذين يأبون أن تكون هذه الدولة مركزاً دينياً ومالياًومثالاً للرخاء والوحدة .

وحقيق بهم راعياً ورعية أن يحقق الله فيهم وعده الذي بلغه رسوله ﷺ بقوله : لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرها من خذلها إلى يوم القيامة .

قال أبو عبدالرحمن : وقبل الدعايات للقيادات غير التاريخية في رقعتنا كنا نعقلها ونتوكل .. وكان عندنا قيون تصنع الخطي والمهند ، وتصقل الشبا ، وتسحج أغصان الزان ، وتغرس فيها الحربة .

وكانت لنا مرابط خيول تُحفظ أنسابها باحتفاء أشد من الاحتفاء بحفظ أنساب بني آدم .

وكنا نصاول القرن ونجندله ، ونهزم الجمع الغفير وإن كنا قلة .

والعربي يومها ناحل العود ، عاري الزند ، ساقه كالمماظ .. ذلك أن عندنا شجاعة في القلب ، ومهارة في الكر والفر ! .

وجاء الإسلام فكنا نرجو من الله مالا يرجون ، وكنا نفرح بالشهادة من أجل الجنة ، وكان عدونا يخاف الموت ؛ لأن جنتهم الدنيا .

ولما كنانملك من العدة جنس العدة التي يملكهاعدونا كنا نتفوق وإن كانت عدتنا أضعف وأقل ، وإن كان عديدنا أقل ، وإن كان فارسنا نحيلاً وكان القرن مدججاً بالشحم واللحم والكراديس الضخمة والدروع .

وكانوا في جاهليتهم .. وكانت الجزيرة لهم من أبحرها الثلاثة إلى سواد

العراق .. ولم يكثر عددهم كثرة تليق بهم وبموطنهم على أنهم أمة وشعب ملؤا الآفاق فيما بعد ؛ لأن أعمار ناشئتهم لا تطول في الغالب ، بل تخترمهم الحروب .. فلما جاء الإسلام وحَّد فروسيتهم المبعثرة ؛ ليؤدوا رسالتهم ، وينشروا الخير والسعادة في البشرية ، فكانت الأمداد تنطلق من عشرات الأفراد ومئاتهم ، ثم تتكون جبهة اللقاء من آلاف بسيطة تقابل مئات الألوف ، وكانت العدة قلة من الخيل ، وقلة من الإبل عليها الراكب والرديف ، ومن يعقبانه وهو يمشي ، وفيهم المشاة .

وكان السلاح سيفاً ، ورمحاً ، وقطعة نصل ، وسكيناً .. فلا تقاس عدتهم بعدة خصمهم ، وإنما الظاهرة أن الطرفين يملكان جنس هذا السلاح .

وكان الزاد والمزاد لديها جراب أو عيبة ، وقطعة شحم قديم ، أو حفنة من طحين ، أو فدرة من تمر .. وربما ظل أحدهم يمص النواة فترة لا يجدون غيرها .

وكان السمن ظاهرة معدومة فيهم واقعاً ، وكان السمن ظاهرة معيبة فيهم عقلاً .

ترى الرجل النحيف فتزدريه
وفي أثوابه أسد مزير
ويعجبك الطرير فتبتليه
فيخلف ظنك الرجل الطرير

ولما جاء الإسلام تعلق اللطف الإلهي الظاهر المعجز بحركات المسلمين في سبيل الله .. وكان اللطف ظاهرتين في حياتهم لا ينخرم تاريخهم عنهما :

أولاهما : ظاهرة الخلاص والفرج إذا انقطعت بهم أسبابهم الدنيوية ، فلم يعد لهم حول ولا طول ، وفوضوا أمرهم إلى الله بالكلية ، وأعظم ظاهرة لذلك

قصة صاحبي الغار محمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه في ذلك المكان ، وقصة التآمر عليه ﷺ ليقتل بأيد كثيرة فيضيع دمه بين الأحياء .

وأخراهما : أن يبدؤا المسيرة بآخر جهدهم ، فيحققوا أسباب النصر المعنوية من خلوص العبادة لله ، وصحة الطاعة له سبحانه ، وصدق اللجأ إليه .. ويحققوا أسباب النصر المادية من الحيطة عن العمل والدسيسة والجاسوسية ، وامتلاك العدة ، وتدبير مكايد الحرب .. فإذا التقى الجمعان باعوا أنفسهم لله ولم يفروا ، وكانت الشهادة أفضل الخيارين عندهم .

وهل مثل ظاهرة معركة بدر ظاهرة إذ يلتقي صناديد قريش (بخمورهم ومزاميرهم ولحوم الجزر) بضعفة المسلمين الذين لا يشبعون شعيراً رضي الله عنهم ، فيمدهم ربهم بالملائكة ؟! .

وكانت القيادة لرسول الله ﷺ أنقى الخلق وأتقاهم ، ثم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه شيخ قريش في السنتين الأخيرتين من شيخوخته وقد أنهكه حزنه على فقد رسول الله ﷺ .. إلا أنه كان أشجع القوم وأصلبهم وأصبرهم وأشدهم تصميماً وإقداماً على إمضاء عزائم دينهم .. والمثال : ردةٌ ولا أبو بكر لها ! .

ثم جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان عظيماً في قراره ، شديداً في الحق ، خاشعاً لربه مخبتاً في منتهى التواضع وإذلال النفس للرب سبحانه وتعالى ، وكان أحدب على المسلمين من آبائهم وأمهاتهم ، وكان مثقلاً بهموم أمته تشغل تفكيره ووقته ، وأكبر دليل على ذلك : « الجبل يا سارية » ؛ إذ كان جيشه في العراق وكان هو في المدينة المنورة ، فيرى بعين قلبه هناك ، ويسمع من هنا بمشيته ربه وإقداره إياه .

وكان يبعث العيون على جيوشه ، ومرةً بلغه عزوةٌ قبليَّة ، فأراد عزل

القائد ومجازاته حتى حلف له أن ذلك هفوة لسان لا يراد بها حقيقة العُبَيَّة الجاهلية .

ثم تغيرت القيادة من أولياء آخرهم علي رضي الله عنهم .. إلى محسنين في كثير من الأمور .. وإلى مقتصدين .. وإلى ظالمين لأنفسهم من أهل النجاة ، فكانت عندهم أثرة وهوى ، ولكن ظل الجهاد قائماً ، وحكم الشريعة عامراً ، وعلن المسلمين سليماً .. لم ينفصل الدين عن السياسة والحياة العامة ورقابة المجتمع .

وكانوا يُنصرون بالله ثم بصلاح فيهم أنفسهم ، وبما يدفع بلاء نقص فيهم ، وهو دعاء السواد الأعظم من الرعية المسلمة لهم .

فلما رفرفت أجنحة الدولة الإسلامية على أنحاء المعمورة ألانهم الترف ، وانعمسوا في النعمة واللهو ، وصار العلم تسليةً ثقافية وليس لتحقيق مصنوع من الكون أو اكتشاف موجود فيه غائب .. فتلا ذلك انفصام الدولة الواحدة ، وتعدد الدويلات ، وتقلُّص الرقعة ، وذهاب الريح ، وفتور الملكة ، وقصور أداء الموهبة .

والتف أعداء الملة والنحلة عسكرياً وسياسياً وعلمياً فانتهى الأمر بهم إلى علم كوني حقق قوة أصبحت بالنسبة لنا اليوم قدراً كونياً قاهراً .

قال أبو عبدالرحمن : واليوم ليس عندنا قيون من أبناء جلدتنا ينتجون ما يكافح القوة النووية .

والجبن هذه اللحظة أمام القوة النووية أصبح شجاعة وسياسة وتدبيراً ؛ لأن المسألة ليست سماحاً بروح الفرد يشتري بها مرضاة الله ، بل هي تدمير شامل للنسل والحرث يجره فرد فيستأصل الضعفة ومن ليس من أهل الحرب .

والمسلم اليوم لا يملك جنس السبب المادي الذي بيد العدو ، فتعطل الجهاد على الرغم منه كما هي الحال بمكة المكرمة قبل الهجرة والإذن بالجهاد .

والمسلم إذا ملك القوة النووية لا يبدأ بها بل يتخذها دفاعاً ؛ لأنه ليس من دين المسلم استخدام الهلاك ابتداء ، وليس من دينه تمديد أمد الحرب أو توسيع مجالها بما هو فوق قدر الحاجة .

ونظام الإسلام في الحرب نظام رحيم ؛ لأن الحرب ذاتها أداة إصلاح فحسب .

والعالم الأقوى - والقوة لله - يحاربنا بما هو دون القوة النووية من صاروخ وطائرة ومدفع ، ويجعل القوة النووية سلاح إرهاب .

إلا أننا لا نملك هذه القوة دون النووية صناعةً ، ولا مُماكسةً إلا في حدود ضيقة مؤقتة أو لغرض محدد .. فقدرة ما نملكه من سلاح لا تتعدى ذلك .

فالحقيقة أننا لم نملك الأسباب المادية الأرضية التي يملكها غيرنا .

والعدو مهما ملك من قوة من المستطاع مكافحة جبروته - على الرغم من هذا - لو كانت العوالم العربية والإسلامية أمة واحدة بقياداتها وشعوبها .. بحيث نملك أراضينا فلا يحاربنا عدونا من عمقها ، وبحيث نملك مواردنا ، وبحيث نستطيع كسر حاجز الحجر النووي وما دونه من التصنيع الثقيل ، وبحيث لا يحاربنا عدونا بالعميل من أبناء جلدتنا ، وبالمغرَّب من ناشئتنا .

قال ثوبان رضي الله عنه في الحديث الصحيح : قال رسول الله ﷺ : إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح

بيضتهم .. وإن ربي قال : يا محمد : إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً .

قال أبو عبدالرحمن : أكثر امتداد دولة الإسلام من المشرق إلى المغرب ، وهكذا صارت الحال كما أخبر بها رسول الله ﷺ قبل وقوعها .

ومملكة الإسلام اليوم قسمان :

قسم انفصل فيه الدين عن الدولة والحياة ، وقسم ذو شعب مسلم لا تخالطة ملل غير ملة الإسلام ، وذو قيادة مسلمة تاريخية قامت منذ نشأت على البيعة الشرعية .

وكل من القسمين يراد له ابتداء المسيرة ليكملها الله عند انتهاء الجهد البشري ، فينصر الله من ينصره .

ويختلف حينئذ تعامل الشعوب المسلمة مع قياداتها ، ففي القسم الأول يكون الحماس للدين عقيدة وشريعة ضد القوى الكافرة بتعقل لا يذهب فيه الدعاة مصادرةً سهلة ولقمة سائغة .

وفي القسم الثاني يكون الحماس للدين وفق معادلة شرعية بين حق الحسبة العام ، وحق الحكومة المسلمة الأخص .

وأهم ملمحٍ الفقهُ الواقعي في حال الدولة المسلمة وقوتها واستعدادها ، وحال القوى العالمية حولها ، والضغوط الكونية التي تحكمها .

وقد قضى تدبير الله الكوني لحكمة يعلمها ربنا : أن يضعف وازع دفع الله الناس بعضهم ببعض إلى أجل ، وذلك في المجال الدولي ، فصارت ظاهرة الوفاق العالمي الذي هو انتصار لدولة واحدة ، وديانة واحدة ، وأحقاد تاريخية واحدة ،

وأيدلوجية واحدة ، وأطماع واحدة .

وقضى تدبير الله الكوني أن تصبح العوالم غير النووية مستضعفة خاضعة لجبروت الوفاق الموحد .

وجاء فقه الدولة المسلمة في خضم هذا الوفاق فرأت أنها لا تملك المجابهة العسكرية لقوى الشر ذات الوفاق .. لا تملك المجابهة ابتداء ، ولا تملك رفضاً مطلقاً يجر إلى مجابهة عسكرية ؛ لأنها لا تملك جنس الأسباب فتكون مبتدئة المسيرة ، فتنتظر من ربها تتميمها بمثل يوم بدر .

إذن صار حكمها بالمقاييس الدنيوية حكم جملة العالم العربي والإسلامي ، وحكم جملة عوالم أخرى لا تملك القرار المطلق فضلاً عن حق الفيتو .

ورأت أنها تسام خسفاً لتشترك مثلاً في تجمع عالمي يصدر قرارات بإلغاء عقائد وشرائع من دين الله ، وتأييد شرائع وعقائد كافرة ميزانها تحكيم الشهوة والانقياد للشبهة .. فتأبى كل الإباء .

وتسام خسفاً في إلغاء تطبيق حدود الله باسم الديموقراطية وحقوق الإنسان .

وشباب الإسلام يعلمون أن الشعب لا يحكم الشعب ، بل الذي يحكم خلق الله شرع الله ، ويعلمون أنه لا حق للإنسان إلا ما منحه إياه دين ربه ، ويعلمون الكيد تحت هذين الشعارين منذ العقد الاجتماعي ، وهوبز ، وهرطقات اليهودي سبينوزا في السياسة واللاهوت .

وعندما ظهر عبدالعزيز إلى بلاده لِلَمِّ الشمل لم يكن أمام رعية ذات وعي علمي تطالب بما لم يخطر على بال الحاكم من إصلاح ، وحينئذ يقال : نزل الحاكم علي رغمه لمطالب رعيته ، وليس بوسعه غير ذلك ! .

كلا .. فقد كان الذين يفكون الخط في القرى الكبيرة على أصابع اليد ..

ولو أراد الخلود إلى الراحة لكان من طبعهم الأمي أن يريحوه !! .

ولكنه كان مثل من يقود الناس إلى الجنة بالسلاسل ، ولم يكن غرضه أن يظل حاكماً لأمة يبزُّها هو في مواهبه ، فيترك الوعي للقيادة ، ويترك الرعية في عماء معزولة عن العالم وحدها .. بل كان طموحه أن يبعث الأمة من همودها ، وأن يوقظهامن سباتها .

ولقد أبرق له كبير من أهل القرى يسترحم منه إعفاء أهل بلده من فتح مدرسة ابتدائية ، فرد الملك عبدالعزيز رحمه الله ببرقية موجزها : « لابد من تعليم أهل القرية حتى لا يكونوا ثيراناً مثلك » .

هكذا كان هذا الأب الكبير يجاهد العامة لمصلحتهم !! .

كان هذا همه قبل أن يكتشف الذهب الأسود والأحمر ، فبعث المرشدين وأنصاف العلماء لتوعية الكبار في الهجر والقرى ، وفتح المدارس النظامية في المدن وكبار القرى لتدريس الشباب ، وأذن بالمدارس الأهلية ، وشجع علي ذلك ، وتحسس أخبار الرعية ، فكل من آنس عنده علماً خرطه - بالإرغام أحياناً - في سلك التدريس والقضاء والحسبة والإرشاد .

ولما شحت الكفاءات عن تغطية الساحة فتح باب البعثة للخارج .

والعجيب أن هذا الأب الكبير في هذا الظرف العصيب يبعث للبلدان من يضغط عليهم ويقنعهم ببعث أولادهم لمراكز التعليم كدار التوحيد مثلاً !!.

وظل يحارب نصف قرن مرغماً لتوحيد بلاد مقسمة ، وتجميع أمة مفككة .. أكثر هذه المدة قبل توحيد الجزيرة من أجل توحيدها ، وقليل منها بعد توحيدها لحماية الوحدة ، ومن أجل حفظ مكاسب الرعية ، وقد أرخ لهذا العمل الدؤوب الشاعر علي بن إبراهيم القري بن عبيد فقال :

مـرحوم ياللي وحـد المملكـة عـــام

الـف وثـلاث ميـة وواحـد وخمسين

في قصة كنـه مـن أضغاث الاحـلام

رجـل بـنى دولــة وروّض شياطــين

وحروبه ذاتها إصلاح إلا أنه كان يقول : أحب شيء إليّ السلم لأتفرغ للإصلاح .

أما أن حروبه ذاتها إصلاح ؛ فلأنها في نفس السبيل التي ذكرها شاعر العربية محمد ابن عثيمين بقوله :

فقـد كان في نجد قبيـل ظهوره

من الهرج ما يبكي العيون تفاصله

تهارش هذا الناس في كل بلدة

ومـن يتعـد السور فالـذئب آكلــه

فما بين مسلوب وما بين سالب

وآخـر مقــتول وهـــذاك قاتلـــه

وجعل الله في حروب عبدالعزيز الشفاء والصلاح ، فكانت النتائج كما قال ابن عثيمين :

فأبدلكم ربـي مـن الفقـر دولـة

وبالـذل عـزاً بـزَّ خصماً يناضله

بــيمن إمــام أنتـمُ في ظلالــه

يدافـــع عنكـم رأيـــه وذوابلـــه

بـه اللـه أعطانـا حيـاة جديـدة

رَفَهْنا بها من ضنك بؤس نطاوله

إن عبدالعزيز لم ينزل على رغبة الجماهير في تحقيق وَشَلٍ من الإصلاح يتغنى به الإعلام الدعائي أشهراً ، وإنما كان يحارب الجماهير الأمية ليفرض عليها الإصلاح ، وهذا جزء من « يدافع عنكم رأيه » فيما مضي من شعر ابن عثيمين ·

إن كل مخالف لنا في الملة والنحلةعدو لنا يكرهنا ، ولكن الغربيين بهرهم موقف عبدالعزيز من الحياة الأمية فأعلنوا إعجابهم بقيادته الحضارية ، وكيف حول الجيل الأمي الممزق إلى مهارة تحترف الزراعة وغيرها في السلم ، وتؤلف جيشاً في الحرب ؛ ولهذا كان رمز الراية كلمة التوحيد والسيف والنخلة ·

كلمة التوحيد في السلم والحرب ، والنخلة رمز الحرفة والعمارة ، والسيف لحماية الحياة الكريمة ·

إن استماتة عبدالعزيز في فرض الإصلاح نتيجة لما أشار إليه فيلبي في الذكرى الذهبية من تقدير ابن سعود ضعف المجتمع الذي جاء لإنقاذه بإذن الله ·

كان مجتمعاً حضرياً غارقاً في الكدح لا ينال البلغة ، ولا يعرف الحرب إلا لضرورة الدفاع عن النفس ·

وكان مجتمعاً بدوياً لا يعرف الحرفة ، ولا يقتات إلا من نهب أبناء العم ، ومن ماشية قتل مالكها ظلماً وعدواناً ·

فنظم عبدالعزيز المَلَكَةَ الحربية لدى البدوي في نظام عسكري تبعاً لأهداف سامية ، وألف القلوب على ذلك ، وضرب بيد من حديد على من أراد إذهاب الريح بنعرة قبلية ·· وفي نفس الوقت جمعهم وَمَدَّنهم لعمارة الأرض ·

وأبقى الحضري على طموحه في التعمير ، وشجعه وجدد له الوسائل ··.

وفي نفس الوقت نظم منهم جنده للحرب ، وجعلهم القلب لجيشه إذا سار كهيئة الطائر بجناحين ذي ميمنة وقلب وميسرة .. نظم ملكتهم الحربية لأنه يعرف بلاء هم منذ الإمام محمد بن سعود .

لقد نجح عبدالعزيز في ترسيخ الهدف الديني والقومي والوطني في قلوب الأميين ، وصان الشجاعة والفروسية الثرية في الجزيرة أن تُهدر في ضياع الأمة .

وهو نجاح حققته استجابةً طموحةً لا تعترف بأدنى قوة على الأرض ، وقد أسقط صبيان التوحيد الطائرة بالبندقية البدائية وقتلوا الطيار عنوة .

وخاف عبدالعزيز من منتهى الطرفين ؛ لأن لديه معادلات ليست عندهم .. لأنه ذو وعي سياسي يملك به حساً ورؤية .

والرسائل والمسائل النجدية وما في حكمها تدل على أن تخوُّف عبدالعزيز صاحَب تصميمه على غرس المبادىء ، ولهذا بكَّر ببعث الدعاة والمرشدين من المطاوعة ومن العلماء يحذرون الناس من مغبة الغلو ، ومن تدين بلا تأصيل يضع المعادلات بين المصالح والمفاسد .

قال أبو عبدالرحمن : وفي كتابي « مسائل من تاريخ الجزيرة » تناولت مسيرة الحركة الفكرية - ديناً ، وثقافة ، وسياسة - فيما بين عام ١٢٩١هـ وتوحيد المملكة العربية السعودية .

قال أبو عبدالرحمن : لامراء أن التجزئة أصابت بلادنا العربية والإسلامية من دولة واحدة إلى دويلات وأقطار ، ولا ريب أن الملك عبدالعزيز رحمه الله حقق أعظم وحدة وطنية في البلاد العربية تحقق بها مفهوم الدولة الواحدة .

قال أبو عبدالرحمن : وهذا نص برقية رفعها الأمير عبدالعزيز بن إبراهيم وكيل إمارة المدينة المنورة يومها مع التماس لأعيان المدينة :

« حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المفدى عبدالعزيز آل سعود أيده الله

.. أتشرف بأن أعرض لجلالتكم أنه في هذا اليوم الموافق ١٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥١هـ قد اجتمع العلماء والأهالي ، وبعد المذاكرة والبحث قرروا رفع برقيات منهم لأعتابكم العالية يسترحمون فيها صدور إرادتكم السنية بالموافقة على تحويل اسم المملكة الذي هو « المملكة الحجازية والنجدية » إلى اسم « المملكة العربية السعودية » .

وقد بنوا قرارهم المشار إليه على حقائق اجتماعية أوضحوها فيه .. كما أنهم نوهوا بلهجة أكيدة باسترحامهم بصدور أمركم الجليل بوضع نظام للحكم ، وتوارث العرش تأييداً لمركز الدولة في الداخل والخارج ، وتخليداً لها على مرِّ العصور كما هو المحقق بعنايته تعالى .. وحيث أن من ذلك تأمين المصلحة فإني أضم صوتي إلى صوتهم مسترحماً صدور الأمر الملكي الكريم بإسعاف مرغوبهم سيدي .

وكيل أمير المدينة المنورة

« عبدالعزيز بن إبراهيم »

حضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم عبدالعزيز آل سعود أيده الله

(الرياض)

بحمده تعالى : في اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى عام ١٣٥١هـ قد اجتمع الموقعون أدناه من علماء وأهالي وتجار المدينة المنورة للبحث والتشاور في أمر خطير يعود نفعه على هذه البلاد التي من الله عليها بأن يكون الجالس على عرشها جلالة الملك المفدى عبدالعزيز آل سعود أيده الله ، ذلك أن الباري سبحانه قد اختصها من بين الأقطار العربية الشقيقة بمزايا جمة ، فقد جعلها أشرف

البقاع على الإطلاق ، وأظهر الممالك العربية استقلالاً ، ووهب أهلها مفاخر خاصة بهم ، فجعلهم عنصراً عربياً متحداً في الدين الإسلامي ، والعادات ، والأخلاق ، والتاريخ ٠٠ إلى غير ذلك مما يدعو ويحض على وحدة البلاد بكل معاني الوحدة ، ومظاهرها القيمة ، ولكون أهم هذه المظاهر هو اسم المملكة التي تشمل أبناء الأمة العربية الموصوفة آنفا ، ولأن اسمها الحالي الذي هو « المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها » لا يفي بالغرض الأسمى المطلوب ؛ إذ أنه لا يدل على الاتحاد العنصري والحكومي والشعبي الماثل في هذه البلاد بأصدق معانيه ، وغاية ما يدل عليه تسمية بعض الأقطار العربية ، فنظراً لما شُرُح ، وإظهاراً لكمال التضامن الموجود حالاً واستقبالاً ، والذي تجلى في حوادث ابن رفادة الأخيرة ؛ لذلك فإن عموم المجتمعين يسترحمون من جلالة الملك المفدى أن يتفضل بإصدار إرادته الملوكية بالموافقة على تحويل الاسم الحاضر إلى الاسم التالي « المملكة العربية السعودية » ؛ لأن هذا الاسم أكثر انطباقاً على الحقيقة الراهنة ، ولأنه أدل على الأماني المقبلة ، وأظهر في الإشارة إلى من كان السبب الوحيد في انتظام عقد هذا الاتحاد الميمون ٠٠ ألا وهو شخص جلالة الملك المحبوب ، ولأنه يشمل جميع البلاد العربية التي وفق الله جلالة الملك بتوحيد شملها ولم شعثها ٠

هذا ولما كان الانتظام والاستقرار هما من الشروط الأولية في بقاء الدول واستمرارها كما يبرهن عليه التاريخ ، وتتبع أحوال الأمم والحكومات : لهذا فإننا نقدم أيضاً إلى حضرة صاحب الجلالة مليكنا المفدى أطال الله بقاءه مسترحمين من جلالته أن يصدر أمره العالي بوضع نظام للحكم ، وتوارث العرش ؛ لما في ذلك من تقوية مركز البلاد مادياً وأدبياً ، ولكي يعلم القاصي والداني من الأصدقاء وخلافهم : أن هذا الملك بحول الله وقوته باق على مرِّ الدهور

موطد الأركان لا تؤثر فيه الزعازع ، وإنا واثقون بأن جلالتكم حفظه الله أول من يقدر هذه الحقيقة الاجتماعية حق قدرها ٠٠ وفق الله جلالتكم لما فيه الفلاح والصلاح ٠

محمد زكي ، السيد عبدالجليل مدني ، محمد حسن سمان ، عبدالله جمل الليل ، إبراهيم بري ، حمود دشيشه ، عبدالله مسلم ، صالح عبدالله الزغيبي ، عبيد مدني ، إسماعيل حفظي ، يحيى زكريا ، حسام الدين المصطفى ، صالح التونسي ، محمد الطيب التنبكتي ، عبدالرؤوف عبدالباقي ، ذياب ، عبدالعزيز مدني ، أحمد بساطي ، عبدالله برزنجي ، محمود شويل ، عتيق بن محمد المحرج ، حسني العلي ، السيد زين العابدين مدني ، عبدالعزيز الخريجي ، محمد الخريجي ، حسين طه ، محمد زين بري ، أبو بكر ، أسعد أسعد ، محمود دشيشة ، حمزة بافقيه ، عباس قمقمجي ، عبدالله بن عمرو ، صالح البلاع ، محمد الدغيثر ، إبراهيم التركي ، علي بن عبدالله عقيل ، حسن عبدالجبار ، إبراهيم هشام ، زين صافي ، صالح خاشقجي ، محمد حسين جياد ، محمد أسعد » (١٢) ٠

قال أبو عبدالرحمن : ابن إبراهيم جبهة منيعة في مسيرة تاريخ بناء الوحدة ، وفيه شدة وحزم ٠٠ والملك عبدالعزيز يريد كياسته وقوته ولكن في حدود لا تمس أمن الرعية ؛ ولهذا لما عينه في إمارة المدينة المنورة وجه له ولنائبه رسالة مطولة عيَّن فيها صلاحياته ، كما نصحه وأوصاه بمراعاة الناس واللين والطمأنينة ٠

وبيَّن له أن الناس يتهمونه بالشر ، والأمل أن يبدل ذلك بالخير ، كما

---

(١٢) جريدة أم القرى العدد ٤٠٧ في يوم الجمعة ١٣٥١/٥/٢٩هـ ص ٣ ٠

أوصاه بتنفيذ أمر الشرع ، والأمر بالمعروف والأخذ بأيدي الآمرين به ٠٠ وعليه أن يجعل من جميع الموظفين أصدقاء وبعيدين في الوقت نفسه ، والأخذ بخواطر العسكريين والأخذ على أيديهم ، ومراقبة الدوائر الحكومية عن الفساد ، وعدم التدخل في أمورها التنظيمية ، مع التفطن إلى خَدَمه فهم الخراب ، ولا يتدخلون في موضوع إلا بأمر منه ٠٠ وبشأن الإخوان الدعاة إلى الدين حثه على إكرامهم ، وإن رأوا منكراً فعليه بعثه إلى هيئة الأمر بالمعروف ، ولا يسمح لأحد بمد يده (١٣) ٠

كما وجه الملك عبدالعزيز رحمه الله رسالة إلى أهل المدينة كافة في ١٠ ربيع الثاني عام ١٣٤٦هـ بلغهم أنه عيَّن عبدالعزيز بن إبراهيم في إمارة المدينة ، وقد دافع عنه قائلاً : « فلعلكم تسمعون بشدة عبدالعزيز بن إبراهيم وتهابون منه ، وهذا شيئ لا حقيقة له ٠٠ إن ابن إبراهيم شديد على العاتي ، حبيب لمن سلك الطريق ، وعرف حق نفسه ، وغلبه اعتماده على الله ثم على الأحكام الشرعية بجميع أمر يرد إليه ٠٠ » (١٤) ٠

قال أبو عبدالرحمن : ناولني بعض الشباب الغيورين الحريصين على حماية جناب التوحيد قصاصات مصورة من كلام أبي عبدالعزيز عبدالله ابن خميس ، وقالوا : هذا كلام شيخك ابن خميس لعله خارج عن حدود الشريعة فرد عليه ؟! ٠

فقلت : هاتوا أنظر ، فأنا أحب ابن خميس والحق أحب إلي ٠٠ كما قال أفلاطون عن سقراط ، وكما قال ابن حزم عن داوود ، وكما قال ابن حزم عن

---

(١٣) خمسون عاماً في جزيرة العرب ص ٢٦٧ - ٢٧١ ، وانظر مجلة عالم الكتب ١٥/٣/ ٣١٦ - ٣١٧ ، وقد مر خطاب الملك بنصه ٠

(١٤) المصدران السابقان ٠

ابن جرير ، وكما أوصى ابن حزم طلابه أن يقولوا عنه .

فتناولت قصاصة بعنوان « لا فرق إطلاقاً بين الشعر العامي والفصيح » ، فوجدت ما يشبه علامة التحويق على جملة : « اليوم الوطني يوم من أيامنا » .

وقال عن الأمن في بلادنا في عهد الملك عبدالعزيز : « لم يحدث حتى في عهد النبوة ، ولا في عهد الخلافة ، ولا في عهد سلفنا الصالح الذي مر على هذه الجزيرة » .

وقال في قصاصة ثانية عن عبدالعزيز والجزيرة : « وقال لها قري فقرت .. إلخ » .

وقال : « هذا الأمن الضارب بجرانه في أنحاء الجزيرة لم يكن معروفاً حتى في عهد النبوة ، وحتى في عهد الخلفاء الراشدين ، ولا من بعدهم » .

قال أبو عبدالرحمن : ولو لم أرد التطوع لاكتفيت بإيصال نقد شباب المسجد إلى الأستاذ عبدالله ليفاتحهم هو فيجلو وهماً في أذهان قرائه ، أو التباساً في عبارته هو ، أو يستغفر الله من زلة قلم .

ولا ينقص الأستاذ عبدالله الوعي بالحكم الشرعي - وإن أعنق مع الأدب والتاريخ المحلي - فهو خريج دار التوحيد وكلية الشريعة ، وعميد الكليتين ، ومدير عام رئاسة القضاء فيما مضى وانقضى .

ولولا أنه طُلب مني أن أقضي في الموضوع ما تدخلت بكلمة ، ولجعلت له الكلمة الأولى والأخيرة .. لهذا آخذ منه الكلمة الأولى وأترك له الأخيرة .

فأما أن الأمن في عهد الملك عبدالعزيز لم يحصل مثله في عهد النبوة ولا في عهد الخلافة : فإن صح فهو صحة حقيقة تاريخية ، وإن لم يصح فهو بطلان وهم تاريخي .

والحدث التاريخي مثل هذا - إذا لم يكن عن تقصير من البشر ، وكان

فوق حولهم - قدرٌ كوني ، وليس عملاً شرعياً يتعلق به حكم المدح والذم .

هذه واحدة ، والثانية أننا نقول ثمة فرق بين قولنا : الأمن في الجزيرة .. وقولنا : الأمن في ولاية رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين .

والثالثة : أن كل أمن حصل في أي مجتمع إسلامي فهو بالله ثم ببركة الاتباع لشرع الله والاقتداء بولاية رسول الله ﷺ وولاية خلفائه الراشدين .

والرابعة : أنه حصل أمن لا مثيل له في عهد سعود الأول بن عبدالعزيز الأول رحمهم الله تعالى ، وقد لهج بهذه الظاهرة المؤرخ ابن بشر .

قال أبو عبدالرحمن : فإن قال قائل : إذن ما ميزة هذا الأمن العظيم في عهد الملك عبدالعزيز بجزيرة مترامية الأطراف ؟ .

فالجواب أن العقيدة والشريعة لما ظهرتا بالمدينة المنورة على يد ذي العزم من الرسل محمد ﷺ كانت الأمة يحكمها الوازع القرآني ، ويرتاح الوازع السلطاني بمقدار قوة الوازع القرآني في نفوس الناس .

وعندما خرج الملك عبدالعزيز كان الوازع القرآني ضعيفاً في نفوس أمراء حواضر القرى المتديكين ، وفي نفوس عموم البادية التي تهدر فيها الدماء والفروسيات في غير حروب مقدسة .

وذلك لغلبة الجهل والعامية والأمية ، وقيام نظام المجتمع على الثارات والغارات ، فبرز دور الوازع السلطاني الذي يُعزى إلى الملك عبدالعزيز بعون من الله ، فوحد الجزيرة ، وغير بنيتها بالعلم ، وجعل السيف المصلت غطاء ووقاية لانتشار العلم ونمو النخلة !! .

قال أبو عبدالرحمن : وأما أن عبدالعزيز قال للجزيرة : قري .. فقرت : فهذه عبارة لا تليق ، وإن كان لها وجه من المجاز .

وكلمة « كن فيكون » ليست إلا لله وحده ، فهو وحده الذي يقول للشيئ :

كن ٠٠ فيكون ٠

ولو كان عبدالعزيز رحمه الله حياً ما رضي بذلك ، وهو الذي قال لشيخنا حمد الجاسر : علم فلاناً الدين ! ٠

وله مواقف كثيرة من هذا النوع ٠

ولعل مخرج الشيخ عبدالله في ذلك : أن الملك عبدالعزيز طوع الجزيرة بالدعوة والجهاد ، فكأنه قال لها : قري ٠

فانكسر ذوو الأطماع أمام سطوته ، واستجابت الكافة لدعوته ، وكل ذلك بالله ثم ببركة جهاده ، فكأنها بذلك الانكسار وبتلك الاستجابة قرت ٠

هذا وجه المجاز ، وترك كلمة الكينونة لله بلا تجوز أولى ٠

قال أبو عبدالرحمن : وبإيجاز فوحدة الجزيرة في عهد آل سعود ، وتنظيم إدارتها بحكم مباشر حدث تاريخي لا يعهد له مثيل ٠

قال أبو عبدالرحمن : لقد ظل الملك عبدالعزيز رحمه الله نصف قرن يذرع الجزيرة من جهاتها الأربع بين أنانيات محلية متديكة ، وأطماع عالمية ، وتصارع قوى ٠

وبما أن الهم هم أمة إسلامية وليس هماً جزئياً ، فقد أضحت انتصارات عبدالعزيز غنماً للأمة ، فتحقق لها وطنٌ سعودي ، وطمح إلى مثاله كل عربي ومسلم يود في كل لحظه أن يكون وطنه إسلامياً في مجتمعه وحكومته ٠

ولا يذكرنا بعبدالعزيز مناسبات وطنية مطلقة بالمعنى البروتوكولي الحديث ، وإنما يذكرنا به ذكرى تاريخ مجيد نعيش ثمار نعيمه ، ومناسبة وطنٍ صميم العروبة ، طلعة في إسلامه ؛ لأنه إسلام الرسول وصحابته ﷺ ورضي عن أصحابه عندما ميز سيما السلف الصالح بأنهم من كانوا على مثل ما كان عليه هو وأصحابه ! ٠

ومنهج هؤلاء عقيدة وشريعة معروف بنقل تاريخي غير ملتبس ، وبمصادر واضحة غير ملتبسة ٠٠ بينما تجد أهل الضلالات والجهالات لا يحيلون سلوكهم أو معتقدهم كله إلى سلف متبع بنقل موثق ، وتجد من مصادرهم علناً استحسانهم ، واستحسان مشايخهم وتقليد الآباء والأجداد ٠

ومنهج اتباع السلف منهج جبار الفكر يقول للعقل النزيه : حقق النقل ، ثم حقق المدلول بحرية فكرية ، ثم حقق الاتباع لله بعبودية كاملة ٠

وإذا كانت المناسبة لوطنية صفتها العروبة والإسلام فإنها ذكرى خالدة بلا ريب ، وقد بينت في آخر كتابي « ملاعبة الصيد » الوجه الشرعي للحمية الوطنية ، وذكرت حديثاً حسناً في ذلك ٠

وإذ بينت وجه خصوص هذه المناسبة بعموم نفعها وعناء تضحيتها : فإن ميزاً عديدة تأتي في ثنايا جناح الذكرى لتلك المناسبة ٠

لقد قيل عن الأحداث السعيدة التي ابتدأت عام ١٣١٩هـ بأن عبدالعزيز استعاد حقه التاريخي !! ٠٠ فهذا الحق التاريخي المنسوب إلى فرد هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن رحمه الله ينبغي تتبع جذوره التاريخية لنعرف حقيقته : أهو حق فرد ، أم حق أمة ضائعة ؟ ٠

من جذور هذا الحق التاريخي أن هذه الجزيرة - لا سيما منطقتها الوسطى - مَسْبَعة وشريعة غاب أضعفها نهب لأقواها ، فتحالف المحمدان محمد بن عبدالوهاب ، ومحمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان الحنفي جد آل سعود ، وكان أمير قرية فحسب ، ولكن حلفهما يطمح إلى آفاق يكون العرب والمسلمون فيها دولة واحدة تطبق شرع رب واحد سبحانه ٠

وفي سنة ١١٥٧هـ غصت الدرعية بفضلاء ليسوا من أهل البلد جاؤا

يأخذون العلم عن الشيخ وينضمون إلى دولة محمد بن سعود .

وكانوا في شظف من العيش ، فكانوا بالليل يحترفون ويأخذون الأجرة ، وفي النهار ينتظمون في حلقة الشيخ .. إلا أنهم مادة الخام للدولة الإسلامية الفريدة التي وحدت الجزيرة الممزقة .

وبعد سنوات قليلة رأينا ابن بشر يقول عن قُرَيَّة الدرعية : « نظرت إلى موسمها يوماً وأنا في مكان مرتفع - في الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود المعروفة بالطريف ، وبين منازلها الشرقية المعروفة بالبحيري التي فيها أبناء الشيخ - فرأيت موسم الرجال في جانب ، وموسم النساء في جانب .. وما فيهما من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام ، وكثرة ما يتعاطونه من صفقة البيع والشراء والأخذ والعطاء ، وغير ذلك (وهو مد البصر) .. لا تسمع فيه إلا دوي النحل من النجناج وقول : بعت واشتريت !! .

والدكاكين على جانبيه الشرقي والغربي ، وفيها من الهُدُم والقماش والسلاح مالا يوصف » (١٥) .

قال أبو عبدالرحمن : فالخصب والرغد حق تاريخي لعبدالعزيز ورثه منذ محمد بن سعود ، وهو يريد استعادته بإذن الله ثم بأسباب شرعها الله بعد أن حل بالأمة مجاعات ومساغب وضياع حيلة ، فأكل الناس السمح ، ثم الدعاع وطعمه كطعم التراب ، وقد كتبت عنه شعراً أُملي عليَّ بسميراً أيام إقامتي بها آخر عام ١٤١٢هـ ، وشووا غصون الشجر اليابس وجذورها ودقوها ، وكذلك السِّرح وهي حبال يابسة مقدودة من جلود الإبل شووها

---

(١٥) عنوان المجد ٤٤/١ .

ودقوها وأكلوها .

والغصون المشوية تسمى شويطاً .

وأكلوا الميتة مما أصله مباح ، ومما أصله حرام كقين الحمار .

وحفظت حوادث لبشر أكلوا بشراً ، وحوادث أخرى لبشر هموا بأكل بشر .

وهذه المجاعات يتبعها ويلازمها أمراض فتاكة ، وتنتج عادة عن حياة السلب والنهب وحروب القرى المبيرة ، فتشح الموارد ويعم الخوف ، وتتعطل الملكات والمواهب عن الحرف ، وتقفل السبل أمام من يريد الضرب في الأرض .

فالحق التاريخي لعبدالعزيز أن تعود كل قرية في الجزيرة كالدرعية التي وصفها ابن بشر .. تعود قرى آمنة راغدة لا يقع فيها عاطل ولا ضائع .

ثم نعود لجذور الحق التاريخي فنجد الإمام الثاني عبدالعزيز بن محمد بن سعود ذا مصحف في يمينه وسيف على عاتقه .. لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس ويصلي السنة .

وكان من دعائه لرعيته الذي حفظه رفاقه ودونه ابن بشر : اللهم أبق فيهم كلمة لا إله إلا الله حتى يستقيموا عليها ولا يحيدوا عنها (١٦) .

ووصف ابن بشر الأمن في حياته ، فقال عن عبدالعزيز :« وهو حقيق بأن يلقب مهدي زمانه ؛ لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء .

وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يُسَيِّبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي

---

(١٦) عنوان المجد ١/٢٦٦ .

من الإبل والخيل والجياد والبقر والأغنام وغير ذلك ليس لها راع ولا مراعٍ ، بل إذا عطشت وردت على البلاد تشرب ثم تصدر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع » (١٧) ٠

وذكر من المفالي الحمادة وأراط والعبلة وروضة محرقة والنقعة قرب ضرما وقرى عبيد من وادي حنيفة ٠

وذكر الحجاج والقوافل والسفار ومن يجبون الزكوات والغنائم ٠٠ كل أولئك يأتون من البصرة وعمان وإيران والعراق فيرجعون كما أتوا سالمين في أنفسهم وأموالهم ٠٠ قال ابن بشر : « ليس يؤخذ منهم شيىء من الإخاوات والقوانين التي أحيوا بها سنة الجاهلية ٠٠ يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة الحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام وسلاحه عصاه » (١٨) ٠

وهذا الإمام العادل عبدالعزيز الأول الذي أقام الأمن في ربوع المملكة بفضل الله ثم بفضل تطبيق الشرع والقوة والشدة على المفسدين كان رحيماً بالرعية ليناً متودداً كريماً براً بأهل العلم ، وقد ذكر ابن بشر أن الصبيان إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إلى الإمام عبدالعزيز بألواحهم ويعرضون عليه خطوطهم ، فمن تحاسن خطه منهم أعطاه جزيلاً وأعطى الباقين دونه (١٩) ٠

قال أبو عبدالرحمن : هذا والله الملك السري الذي يكون فيه الملك رب أسرة ومربي جيل !! ٠

---

(١٧) عنوان المجد ٢٦٧/١ ٠

(١٨) عنوان المجد ٢٦٩/١ ٠

(١٩) انظر عنوان المجد ٢٧٥/١ ٠

والإمام عبدالعزيز من كبار العلماء تتلمذ أمداً طويلاً على الإمام محمد بن عبدالوهاب ٠

ومثله ابنه سعود الأول الذي بلغت الدولة في عهده عزها وغاية سعتها ؛ لأنه قائد مظفر بعيد الهمة والهيبة ٠٠ كان من العلماء ووعظه مؤثر ٠٠ وكان مما يتلى في مجلسه ويقوم هو بالتعليق عليه تفسير الفحل ابن جرير الذي لا يقرؤه إلا خواص العلماء ، وصحيح البخاري ٠

ومن سننه التي تثب بالأرواح أنه كان يحب سماع القرآن من غيره ، ولهذا كان إذا ركب في مغازيه وحجه حف به القوم على النجايب العمانيات يحدو به مقرىء حسن الصوت ٠

وهكذا كان ابنه عبدالله علماً وصلابة إلا أنه غلَّب أحكام الأخلاق والشيمة على دهاء السياسة وثعلبيتها فانتهى به الدور السعودي الأول ٠

ومن مواقفه الخلقية النبيلة أنه حقن الدماء باستسلامه – بعد طول جهاد ومصابرة – وبوسعه أن يفر في الجبال والوهاد فيحرج رعيته٠

فهذا الأمن المثالي ، وذلك الامتداد الذي يوحد القرى على دولة واحدة ، ويوحد الموارد على مالية واحدة ،ويوحد الفروسيات المبعثرة في التوافه على جيش واحد : هو الحق التاريخي لعبدالعزيز ٠٠ لقد اعتدي على ذلك التاريخ فأصبحت المملكة إمارات متناحرة،وأصبحت المنطقة الوسطى عشرات الإمارات بعدد القرى ، ومحالٌّ نفوذ أسري ، وأصبح الشرع وازعاً لقلة من الأفراد ومجرد فتوى للجماعة ، ولم يكن شرع الله حكماً ملزماً منظماً لسلوك الجماعة ، لأنه ليس له سيف يحميه ، ولا دولة تقوم عليه ٠

ومن كان يُشار إليه بالأصبع من أمراء المناطق فهو إما ذو مشيخة

قبلية أو هموم إقليمية لا يفكر في وحدة دولة تقوم على تحضر وتعليم وإحياء وازع شرعي .

ولن يعيد عبدالعزيز حقه التاريخي حتى يعيد لربوع الجزيرة أمنها ، ويعيد لشريعة الله وحدوده حريتهما ونفوذهما .

فالخصب والنماء والرغد والأمن وسلطة الشريعة كلهن صفات الحق التاريخي الذي يدعي به عبدالعزيز .

والحق التاريخي لعبدالعزيز تميَّز بخصِّيصتين من الوعي السياسي ، وعرض التجربة ، وبيان ذلك أن عبدالله فلبي تتبع أدوار الدولة السعودية فوصف الدور الأول بأنه ديني بحت ، ووصف الدور الثاني بأنه ديني ، ووصف الدور الثالث - دور عبدالعزيز بن عبدالرحمن - بأنه سياسي ديني .

وهذا التقسيم صحيح إذا فهمنا أن الدور السياسي يعني الوعي بالقوى العالمية خارج المنطقة ومدى قدرها .

وهو باطل شديد البطلان لو فهم الدور السياسي فهماً عامياً بأن المراد الانسلاخ من هم ديني وقيام حكومة سعودية سياسية كيفما كان الانتماء .. ذلك أن جميع الأدوار السعودية دينية سلفية يأخذ عليها أعداؤها انبثاق حكومتها وحياة مجتمعها من الدين في كل شاردة وواردة .

وإنما معنى الدور السياسي الوعي بالقوى العالمية والتعامل معها تعاملاً سياسياً تبعاً للوعي بقدرها .

والدور الأول - لا سيما في عهد سعود الأول رحمه الله - لم يلاين القوى العالمية لا سيما الدولة العثمانية ، وهذا ما ذكره حافظ وهبة ، ولا أستبعد أنه وعبدالله فلبي ذاكرا بذلك الملك عبدالعزيز رحمه الله ؛ ولهذا

كانت الكارثة على يد الإمام عبدالله بن الإمام سعود .

والدور الثاني له قطبان : الإمام تركي بن عبدالله ، وابنه الإمام فيصل .

فالأول أراد أن يعيد جغرافية معينة إلى حضيرة دولتها المسلمة ، والدين معروف ومقتنع به ، وإنما المراد أن يحكم الدين ، وأن يزع جنايات البشر وسلوكهم في كل دقيقة وجليلة .

فالدور الثاني ديني وسياسي معاً إذا أريد معنى عدم فصل الدين عن الدولة ، بيد أن عبدالله فلبي لاحظ وعي الإمام فيصل بالقوى العالمية المتصارعة لاسيما تركيا وبريطانيا .. ولهذا وفق بين السياسيتين الخارجية والداخلية قدر المستطاع .

وجاء عبدالعزيز بن عبدالرحمن وهو أكثر وأدق وعياً بالقوى العالمية العديدة المتصارعة على أنقاض حربين كونيتين طاحنتين .

وهو أكثر وأدق وعياً بالأخطاء التاريخية التي مرت بالتاريخ السعودي ؛ ولهذا نقل عنه أمين الريحاني نقداً حصيفاً لعمه الإمام عبدالله بن فيصل الذي انتهى الدور السعودي الثاني في عهده .

والوضع العالمي محرج جداً بالنسبة لرجل كعبدالعزيز لا يريد الانتماء ، ولا يريد إلا إخراج سفينة أمته من التيار .

والوضع الداخلي أشد إحراجاً حيث المجتمع إما عامي وإما رجال علم فضلاء ذوو حماس ديني لا علم لهم بواقع السياسة الخارجية .. ومن عَلِمَ عنها بعض الشيء فربما لم يقدِّر الأسباب المادية الأرضية للقوى العالمية ، فاستعان عبدالعزيز بالله ، وتعامل مع القوى بحيلة الأريب النزيه ، وتعامل مع ما في الداخل من قصور علمٍ تعاملَ القوي الورع .

وفي أمثال العامة قولهم : « أشين من طقَّة الغارة » و« أشين من قوله

[قال الإمام أبو محمد ابن حزم : « فأما الحسين عليه السلام والرحمة فنهض إلى الكوفة فقُتِل قبل دخولها ، وهو ثالثة مصائب الإسلام (بعد أمير المؤمنين عثمان ، أو رابعها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه) ، وخرومِه ؛ لأن المسلمين استضيموا في قتله ظلماً علانية .

وأما عبدالله بن الزبير فاستجار بمكة ، فبقي هنالك إلى أن أغزى يزيدُ الجيوش إلى المدينة حرم رسول الله ﷺ ، وإلى مكة حرم الله تعالى ، فَقَتَل بقايا المهاجرين والأنصار يوم الحَرَّة .. وهي أيضاً أكبر مصائب الإسلام وخُرومه ؛ لأن أفاضل المسلمين وبقية الصحابة وخيار المسلمين من جلَّة التابعين قُتلوا جَهْراً ظلماً في الحرب وصبراً ؛ وجالت في مسجد رسول الله ﷺ ، وراثت وبالت في الروضة بين القبر والمنبر ، ولم تُصَلَّ جماعةٌ في مسجد النبي ﷺ ، ولا كان فيه أحد ، حاشا سعيد بن المسيب فإنه لم يفارق المسجد ، ولولا شهادة عمرو بن عثمان بن عفان ، ومروان بن الحكم عند مُجْرِم بن عقبة المري بأنه مجنون لقتله .

أسماء الخلفاء والولاة ضمن رسائل ابن حزم
[١٤٠/٢]

الفصل الثالث : واقع الدولة إذا كانت عصبيتها بالدين ، وحقها على الرعية :

[قال الإمام أبو محمد ابن حزم : « واكره الناس على أن يبايعوا يزيد بن معاوية على أنهم عبيد له : إن شاء باع ، وإن شاء أعتق ؛ وذكر له بعضهم البيعة على حكم القرآن وسنة رسل الله ﷺ ، فأمر بقتله ، فضرب عنقه صبراً .

وهتك مسرف أو مجرم الإسلام هتكاً ، وأنهب المدينة ثلاثاً ، واستخف بأصحاب رسول الله ﷺ ، ومدت الأيدي إليهم ، وانتهبت دورهم ، وانتقل هؤلاء إلى مكة شرفها الله تعالى ، فحوصرت ، ورمي البيت بحجارة المنجنيق .. تولى ذلك الحصين بن نمير السكوني في جيوش أهل الشام ، وذلك لأن مجرم بن عقبة المري مات بعد وقعة الحرة بثلاث ليال ، وولي مكانه الحصين بن نمير .

وأخذ الله تعالى يزيد أخذ عزيز مقتدر ، فمات بعد الحرة بأقل من ثلاثة أشهر وأزيد من شهرين ، وانصرفت الجيوش عن مكة .

أسماء الخلفاء والولاة ضمن رسائل ابن حزم
٢/١٤٠ - ١٤١]

قال أبو عبدالرحمن :لا أعلم بعد حكومة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين وانتفاضة صلاح الدين الأيوبي دولة قامت على العصبية للدين مثل دولة آل سعود ٠

ولا يغلط عليّ غالط فيحسب أنني ألغي دينية الدول الإسلامية التي تعاقبت على شرقنا العربي والإسلامي ٠

وإنما أقول : تلك الدول إما ذات عصبيات قبلية ودعاوى حقوق تاريخية للزعامة المجردة ، وإما ذات عصبيات جنسية أممية هاضت على الشرق ثم اعتنقت الإسلام ، وإما ذات عصبية إقليمية أو عرقية استقلت عن الخلافة الإسلامية حال ضعفها ٠

وكل هذه الدول حكمت بالإسلام ؛ لأن المجتمعات مسلمة ، ولم تُهزم النفوس بعد بجبروت علم مادي فتتقبل بيسر الأيدلوجيات ودعايات كيد الكافرين وتضليلهم ٠

ولم تقم دولة آل سعود على جموع تأتي من الشرق أو الغرب باسم العضبية لمجد أسرة بدافع حمية قبلية ، ولا باسم برنامج يُملى من الخارج ، ويراد تنفيذه في جزيرة العرب ٠

وإنما انطلقت من قرية صغيرة جداً هي الدرعية ، وليس لها دعاية ألبته ٠٠ غير الاجتماع على رب واحد يعبد ، وشرع واحد يُنفَّذ ، وتجميع القوى والقدرات لعمارة الأرض ، وقد مزقها التفرق الإقليمي والقبلي ٠

قال أبو عبدالرحمن : كنت أقرأ الفصل العشرين من الباب الثاني من مقدمة ابن خلدون الذي ذكره بعنوان « من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس » ٠

فقد جعل الملك خلافة وكفالة للخلق بشرع الله ، فقال : « من حصلت له

العصبية الكفيلة بالقدرة ، وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه ، فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق » (٢٠) .

وذكر أخلاق السياسة لكل دولة عصبيتها الدين ، وهذه الأخلاق لم نفقدها في البيت السعودي على مدى التاريخ ، وهي كما حددها ابن خلدون « الكرم ، والعفو عن الزلات ، والاحتمال من غير القادر ، والقرى للضيوف ، وحمل الكل ، وكسب المعدم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الأموال في صون الأعراض ، وتعظيم الشريعة ، وإجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عندما يحددونه لهم من فعل أو ترك ، وحسن الظن بهم ، واعتقاد أهل الدين ، والتبرك بهم ، ورغبة الدعاء منهم ، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم ، والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه ، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم ، والتبذل في أحوالهم ، والتواضع للمسكين ، واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين بالشرائع والعبادات ، والقيام عليها وعلى أسبابها ، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد » (٢١) .

قال أبو عبدالرحمن : بعض رجال العلم الشرعي قد يكون لهم احترام وهالة لدى العامة وسواد الشعب في البلدان الأخرى .. من قبل الموافقين لهم في النحلة ، وإنما العبرة بالأخلاق السياسية .. أي أن يكونوا مقدرين من الدولة .

وتقدير الدولة للعلماء في العصر الحاضر خصيصة في البيت السعودي لا عن حاجة طارئة أو مصانعة .. ولكن عن إرث ، ودينونة ، وإعمال لوصايا معهودة .

---

(٢٠) تاريخ ابن خلدون ١٥٢/١ .

(٢١) تاريخ ابن خلدون ١٥٢/١ .

وقبل الحماس الشبابي للإسلام كان هذا البيت ورعيته في المعترك وحده ٠٠ كان على دين شرعي ، ويراد منه أن يكون على دين وضعي كغيره ٠

وكان أعداء الملة يستفزونه بشتى الحيل ، ففي عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمهما الله تعالى تأججت قلوب ذوي الكفر على عمران مناسك الحج ، فطنطنت الدعاية المغرضة باسم حقوق الحيوان ، والرفق بالحيوان ٠٠ والغرض إلغاء شريعة الله في الندب إلى الفداء بمنى ٠

وفي كل فينة تثار حقوق الإنسان ، وليس الغرض حفظ حق الإنسان بشريعة الرحمان خالق الإنسان ، وإنما الغرض حماية الإنسان من دين الرحمان ، واعتبار الدين قيوداً وأغلالاً ٠

وقبل ذلك الحماس الشبابي كان التدين بالإسلام مظهر تخلف ونقص ، وكان التجديف ، والممارسة الحرة العلنية في الخارج مظهر تمدين وطلائعية لدى الأمم الكافرة ذات القوة المادية ، ولدى الدهماء ٠

ولم يؤثر عن هذا البيت إلا ما قاله ابن خلدون من الحياء من المشايخ والأكابر ٠٠ بل من العامة ٠

فلم يؤثر عن مسؤول من هذا البيت الكريم في الداخل أو الخارج تجديف ، أو تظرف بما لا ينبغي ، أو رفع جانب الحياء والمبالاة ، لأن أخلاق السياسة في هذا البيت شرط وجود لا حِلْية تخلُّقٍ مصطنع ٠

وذكر ابن خلدون أخلاقاً سياسية أخرى هي المعهودة بعينها في تاريخنا المحلي ، وهي إكرام الصالحين تديناً ، وإكرام العلماء للحاجة إليهم في إقامة مراسم الشريعة ، وإكرام التجار ترغيباً ؛ لهم ليعم النفع بما في أيديهم ، وإكرام الغرباء باقتضاء الدين والأخلاق ، وإنزال الناس منازلهم بمقتضى العدل ٠

قال أبو عبدالرحمن : وعصبية الدين في هذا البيت كنز من كنوز الأمة

لا ينغص عليه إلا مغامر بمستقبل أمته ، وذلك من عدة وجوه :

أولها : أن هذه العصبية مبادرة ذاتية من أجدادنا ضحوا فيها بالمال والأنفس والراحة لتحقيق مرغوب واحد أجمعوا عليه ،وهو عبادة الرب وتحكيم الشرع

ولم تتغير الدعاية لهذا المرغوب في السلم عن حالتها أيام الجهاد من أجلها ٠

وأي تنغيص على هذه العصبية فهو رغبة عن هدفها ٠

وثانيها : أن هذه العصبية واقع عملي في القدرات الدنيوية ، فقد حصل الاتحاد إقليمياً وقومياً ، وأتيحت فرص العمل والعلم والتعليم ، وحصل الرغد والأمن ٠

وأي تنغيص على هذا فإنما هو ملل من النعمة كملل قوم سبأ ٠

وثالثها : أن هذه العصبية واقع عملي في إقامة مراسم الشريعة ، وصيانة العلن عن التواطؤ على محرم ٠

فكان المجتمع بدولته ورعيته مجتمعاً إسلامياً ٠

وأي تنغيص على هذا فهو مغامرة على مجتمعٍ دون إقامته مليون حاجز في عصر الوفاق العالمي !! ٠

ورابعها : ملكة الممارسة التاريخية ما ينيف على قرنين ونصف اكتسبت فيها الخبرة ، والعلم بداء المجتمع وأدوائه ، والتواطؤ من الرعية على الطاعة والاعتزاز بها ٠

وكثيراً ما قلت : إن حق دولة بهذه العصبية الدينية أخص من واجب الحسبة الشرعية ، ومن ينغص على هذا الحق مأزور غير مأجور ٠

وقد صرح ابن خلدون بالإزر حال الجور - فما بالك إذا لم يوجد

جور - فقال في الفصل السادس من الباب الثاني : « إن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه ، والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله ، فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ، ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك ، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين ؛ لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم ، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه .

وأما إن كان من الملبسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق ، وتنقطع به المهالك ؛ لأن أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين » (٢٢) .

قال أبو عبدالرحمن : ودولة التوحيد ذات مركز ديني ومالي معاً ، ومن خبال التصور أن تسالم دول الكفر هذا الوجود في عهد الوفاق العالمي ، وهو وفاق لم يخرج من ربقة تحكمه داخلياً وخارجياً كل دول العالم الثالث بما فيهم العالمان العربي والإسلامي .

والقطر القائم على الإسلام دولة ورعية لا ينال الوفاق العالمي الكافر من أمنه الفكري والديني إلا بالكيد والدس وتمويه الباطل والتلبيس على الحق .

وتفرد شخص أو جماعة بما يظن أنه حسبة افتيات على الإمام ، وإحراج له أمام الغيظ العالمي المعادي للملة والنحلة .

وحركات التاريخ في الأغلب حركات جزئية ، وتكون تارة حركات عالمية فَتُبلى الأمة بقدر كوني فوق إرادتها وقوتها .

---

(٢٢) تاريخ ابن خلدون ١٦٩/١ .

وأسوأ تغير عالمي ظرف الوفاق العالمي حيث تضافرت أمم الكفر على استلحام بعضنا عسكرياً ، أو محاصرتنا اقتصادياً ، أو الإرجاف بنا عالمياً .

وكل مخلوق فكماله هو مدى قدرته ، وليس كل ما لدينا من قصور يكون سببه تفريطاً في عصبية الدين ، أو تعمداً للإخلال بجانبي الولاء والبراء .

والسبح في التيار انتحار .

ولم تفتن أمتنا في دينها فتنة يُستحلى معها بطن الأرض ، ولم تضج أرضنا بمتضور جوعاً ، أو بمظلوم في عرضه أو نفسه أو ماله لم يجد لتخليص الحقوق مرجعاً .

ولم يوجد في رسومنا مما يُبنى عليه علن المسلمين تنظيم يتقزز منه المسلم فيقول : أبرأ إلى الله من هذا !! .

والمعادلة في السياسة الخلقية للدولة التاريخية ظاهرة لعيان العامة قبل الخاصة ، وهي الحفاظ على عزائم العصبية الدينية في الداخل برسوم الشريعة القائمة ، والوازع السلطاني الماثلة أجهزته ، والتربية التعليمية والإعلامية والوعظية بحسب القدرة .. كما أنها استدفاع للشر من الخارج بالصبر والأناة وبذل الحطام الدنيوي .

وكل جهد فردي أو جماعي في الدعوة والإصلاح لا يجوز بحال أن يفتات على معادلات الدولة وحساباتها ، ولا أن يحرجها في جهادها الخارجي الأكبر ما دام الواقع للدولة وللوفاق العالمي بالصورة المذكورة آنفاً .

فإن جاءت دعوى الإصلاح تشهيراً من عاصمة أجنبية عدوة في الملة والنحلة فواجبٌ شجب هذه العمالة والتحذير منها بالأقلام وعلى المنابر .

وإعلان البراءة من هذه العمالة واجب كل مسلم .

قال أبوعبدالرحمن : ومطلب المسلم أن تكون حياة الأمة كلها من المعروف الذي أثنى الله عليه ، وأن تكون حياة الأمة كلها خالية بريئة من المنكر الذي ذمه الله .

والمطلب أن تكون أمة الدعوة في مواجهة لأمة الإجابة باللسان واليد والسنان حتى تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الحكم في عباد الله لشرع الله .

هذا مطلب المسلم ؛ لأن الإسلام أراد منه ذلك .. إلا أن قانون الإسلام يجعل التكليف حسب الاستطاعة ، والقيام مع القدرة ، وعلى المسلم أن يظل في إعداد القوة ؛ لأن الله وعد بإتمام المسيرة ولم يعد بابتدائها ، وهو سبحانه إذا يشاء قدير ، وهو على ما يشاء قدير ، وهو على كل شيء قدير .

وجعل سبحانه لمطلب المسلم معادلات شرعية يزن بها المسلم أموره ، فلم يأذن له الشرع بالإلقاء إلى التهلكة بدعوى التوكل ، بل أوجب مراعاة الأسباب المادية والقوى الأرضية .

وإنما يجب التوكل المجرد عن الأسباب المادية تجرداً يتحقق المسلم نفعه : حينما يقع في تهلكة على رغمه بغير إرادته وليس معه أي سبب مادي ، فهنالك يفوض الأمر إلى الله بإطلاق .

أما حينما يمنحه ربه سبباً أو أسباباً فحينئذ يتعهدها ويكافح بها مع إيمانه بأن كل شيء بيد الله وأن الله مسبب الأسباب .

والذي مكنه ربه من صنع أو امتلاك سكين أو سيف أو بندقيه أو رشاش أو صاروخ ثم يشهر كل ذلك بمواجهة قوة نووية لم يصنعها ولم يملكها ، ثم يقول : « عليهم الله وأكبر » وهو غير مضطر إلى المواجهة وغير مجبر عليها للدفاع عن نفسه وعرضه فهو سفيه ، والسفه ليس من دين الله .

أما الابتلاء في الدين فقد جعل الله للمسلم مناديح بالمعاريض ، وما جعل على من أُكْرِهَ سبيلاً مادام قلبه مطمئناً بالإيمان .

ولم يأذن الشرع للمسلم بأي تصرف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا في حدود المعادلة بين جلب المصالح ودفع المضار .

وأذن له بتعطيل المصلحة الصغرى بجانب جلب المفسدة الكبرى .

وكل مصلحة لا تُستجلب إلا بضرر أكبر فهي مصلحة صغرى .

ولهذا كانت الحسبة درجات أضعفها حب المعروف بالقلب وحب أهله ، وبغض المنكر بالقلب وبغض أهله .

ولهذا أيضا فإذا تمت البيعة والولاية لحاكم مسلم لزمت طاعته ، وكانت طاعته أخص من عموم نصوص الحسبة المقتضية لساناً ويداً .

ولايطاع في أمر بمنكر كما لا يعصى في أمر بمعروف .

ومقياس الإسلام في الولاية أن لا يظهر كفر بواح ، وأن لا تشيع الفاحشة في المسلمين علناً بأن يعلن بإباحتها بتنظيم إداري ، أو أن يستعرضها السلطان بحماية من جنده .

إن قراراً من الحاكم بإباحة محرم مقطوع بحرمته ، وسَنِّه محادة لشرع الله ، وكفر عملي ظاهر يوجب على الرعية التغيير .

أما إذا كان دستور الدولة يحرم ذلك المنكر ، وقضاؤه وأجهزة تنفيذه تمنع منه وتزع عنه بشتى العقوبات ، ثم تفشى ذلك الفساد لفساد من مسؤول أومواطن فذلك يقتضي تعاوناً مع الحاكم وأجهزته بقوانين المعادلة بين حقوق الحسبة وواجب الراعي والحذر من إهانته ، ولا يبيح ذلك نزع يد الطاعة لا باللسان ولا باليد .. والحاكم المسلم سلطان الله ، ومن أهانه أهانه الله بالنص الشرعي .

ومن الفتنة في الدين والدنيا تجرئة العامة على بغض ولي الأمر ومخالفته ورفع هيبته .

وأمن الفرد في نفسه وماله ودينه بأن لا يصد عنه .. كل ذلك أمهات المصالح التي توزن بها نصوص الحسبة .

وأي دعوة باسم الإصلاح تضخِّم مفاسدَ من فعلِ مسؤولين ومواطنين لم تعلنها الحكومة المسلمة ، ولم يحمها عسكر السلطان ، ولم يقنن لإباحتها بنظامه .. ثم تسعى إلى تقزيم كل مصلحة من أمن في الأبدان والأوطان والأموال والأديان ، وكون الأجهزة إسلامية ، والتعليم إسلامياً : فإنها (أي دعوى الإصلاح تلك) محرمة شرعاً ، والحكم فيه أنها خروج على الولاية أو مقدمات خروج .

وجاء الملك عبدالعزيز رحمه الله والأمر في شتات فأخذ بكل الأسباب والحيل لتوحيد الشمل ، واستعان بالله ثم بسياسته الحكيمة في المعادلة بين المصالح والمفاسد .

فهو أولاً بشر غير معصوم تصوراً وسلوكاً يخطىء ويضعف كأي فرد من الرعية ؛ لهذا صار يقتص من نفسه بالتوبة والإنابة ، وأنه على مرأى ومسمع من وازع الدين والخلق ورقابة المجتمع ، وأنه لا يسعه من العلن إلا ما يسع أي فرد من رعيته بأن يكون العلن نظيفاً موافقاً للشرع .

ويحاسبه في السر من يحاسب أي فرد من أفراد رعيته في سره .. وهو الله سبحانه .

وهو ثانيا أمام قوى وضغوط عالمية فوق قدرته عسكرياً وبشرياً ، وهو يريد أن تسلم له خصائص ومقومات رعيته في ولايته ، وأن يظل تعامله مع أشقائه نظيفاً مجدياً ، فتحمل عبئاً مرهقاً في النفوذ من أغوار السياسة

الخارجية ليحفظ وحدة أمته وأمنها المادي والديني والفكري ٠

وتحمل نفس العبء في النفوذ من أغوار السياسة الداخلية ليجتنب التصادم مع قوى خارجية لغير ضرورة ٠٠ وليحل بالسياسة مايُبْعِد عن الفتنة ٠

وهو ثالثاً أمام واقع مفكك أمنياً وصحياً وتعليمياً وغذائياً ، وتقتضي السياسة في الضيق والعسر مالا تقتضي في السعة واليسر ٠

في الأولى يكون الأخذ بالعقوبة بعدل ٠

وفي الثانية يكون الأخذ بالعفو عن إحسان ٠

كان الناس في عهود التفكك ذوي قرى محاطة بأسوار عظيمة عريضة مضاعفة من اللبن ، وكان لكل قرية مدخل أو مدخلان ، ولكل مدخل بواب يجمع قوته وقوت عياله من أهل البلد ٠

وكان في كل ركن من القرية مقصورة حربية ، وخارج السور أبراج حربية تراقب أي خطر يحيق بالقرية ٠

وبعد صلاة العشاء توصد الأبواب عن الداخل والخارج ٠

ولا يخلو أسبوع من صريخ لا ستدراك غنم أخذها اللصوص أو شبهها ٠

ومن ثم يفزع أهل البلد ، وأول من يفزع من ليست له عنز !! ٠

والسواد لمن لم يفزع ! ٠

ومن لم تتعين هَبَّتُه ، أو حال دونها مرض أو شيخوخة فعليه نائبة مالية يدفعها لأعيان البلد أو أميرها ٠

وربما عاد أهل البلد يدقون طبول الفرح لاسترداد الماشية ، ولكن يسبق طبول الفرح قادم ينعى فلانا وفلاناً ممن قتل في سبيل استرداد الماشية ٠

وربما تبع القرية أراضي زراعية ومفايض شعبان فيزرعونها ويبنون بها قصوراً تعرف باسم البلد كقصور شقراء ٠

وللقصر أسوار ومقاصير يعانون فيها ليلاً ونهاراً كما يعانون في القرية ، فيقتل الأب ، أو الأب وابنه ، أو الأب وابنه وأخوه في حماية ثورأو حمار كما حدث في قصور سميرا ، وقصر الحليفة كنزة ، وقصور الشعراء ٠٠ إلخ ٠٠ إلخ ٠

والناس في جوع لا يأكلون ، وإذا أكلوا لم يشبعوا ٠

وربما غزا أهل القرية بتجهيز من الأعيان ، وربما عادوا بلا حرب ومع كل واحد فضلة من زهاب تكفيه يومين أو ثلاثة ٠٠ معه صاع بر ، أو وزنة تمر ، أو طُرَقٌ من قرصان مدهونة أو حافة ، فتقوم الحرب بين صغار القرية وكبارها من أجل استرداد الزهاب ٠

وربما عادوا من الحج ومعهم قديد الأضاحي وبقية الزهاب فحدثت كسور وشجاج من جراء خلاف شجر بينهم ٠

ومع الخوف والجوع لا يتم بناء دولة ، ولا توحيد جيش ، ولا تعليم أمة أمية ٠

فبطش رحمه الله بالمفسدين ، وأبطل الثارات ، وشفى النفوس بالقصاص الشرعي ، وصار يلقن رعيته الأحكام الشرعية بأسلوبهم العامي ٠

كتب رحمه الله تعميماً اطلعت على نسخة منه موجهاً إلى عبدالمنعم بن ناقي الحربي جاء فيه : « من طرف النكال فنحن طرحناه موجب الأمور التالية :

الأمر الأول : رأفة بالرعايا ٠

الثاني : ربما أن بعض المأمورين يجتهدون في بعض الفساد لأجل أخذ

النكال ، وأردنا أن نبطل ذلك لأجل راحة الجميع ٠

ولكنه إذا ترك الجاني ما يؤدب اتسع الخرق ، واتخذها الأشرار فرصة ، فأحببنا أن نبين لكم ماذا يكون على الجانين الذين يعملون المشاغبة ، ويعملون أعمالاً تضر في بعضهم بعض ، وتترك مأموري الحكومة مُكْتَفِّين عن ردع الجاني ٠

أما الذي طرحناه فهو أخذ النكال الفلوس قليلها وكثيرها ٠

وأما الجنايات كلها فحبينا نحط لها ترتيب حتى يكون عندكم معلوم يعمل به الأمراء وتمتثل به الرعية ٠

الأول : أن الجنايات كلها تعرض على الحكم الشرعي ، والعمدة على الحكم الشرعي ٠

فما كان به قصاص بأي حال تكون فالقصاص كاف عن الجناية والنكال ٠

وأما إذا حكم الشرع بين اثنين بحقوقهم ، وثبت عند حاكم الشرع أن الجناية على شخص أو على قبيلة أن الأمر لله ثم لولاة الأمور للردع ، فنقول عن ذلك وبالله التوفيق : أما الجناية التي تكون بصيالة من فريق على الفريق الثاني - سواء أنه عرب مع عرب ، أو رجال مع رجال ، أو شخص مع شخص - :

فأما العرب الذين يصولون بأهلهم وقبيلتهم بعضهم على بعض فهذا يعمل فيه بأمرين :

الأول : أن المتسبب لهذا العمل يحط عليه نكال من حلاله موجب أمرناحنا

لا أمر أي أمير ولا خادم ٠

ويؤخذ من الصايل والمتسبب جميع الآلات الحربية سواء أنها ذلول أو فرس أو بندق ٠٠ هذا هو الذي يجري على الصائل ، ولكن نكرر ذلك أن هذا يكون على نظر الحكومة لا على نظر أي أمير أو خادم ٠

وأما القتل فيكون سواء أن القاتل متعمد وعفا عنه أولياء المقتول ، فهذا يحبس عن نكال الحكومة خمس سنين ، وهذا نكاله ٠

فأما القاتل بغير عمد فينظر في أمره فإن كان الأمر خَطْرَةً غصب عليه فتكفي فيه الدية ٠

فإن كان أنه مستبب في حال القتل لكن ما هو بمتعمد قتل الشخص فهذا الحكومة تنظر في أمره ويحبس من سنة إلى سنتين إلى أشهر ٠

وأما الجنايات التي غيرها بمضاربة ومثل ذلك فيقدر على المتسبب بحبس على قدر عمله سواء أنها أشهر أو أيام معلومة ٠٠ عند أول جناية تكون تقرر الحكومة عليه شيىء من الحبس ، ويكون العمل عليه ٠٠٠ » ٠

قال أبو عبدالرحمن : ويستمر الخطاب في هذا التقسيم استثماراً للمصلحة المرسلة التي يجعلها الشرع من نظر السلطان ٠

ورأيت له رحمه الله خطاباً آخر وجهه إلى صالح بن شعمل السهلي عن إسقاط الجنايات والثارات ، وعبر عن ذلك بكلمة « دميناه » أي أهدرناه حسب لغة أبناء الجيل ٠

وهو رحمه الله يحذرهم من خطور الثارات على بالهم ، وقد نشر الوثيقة الأستاذ ابن خميس في معجم اليمامة في مادة « المشاش » ، ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى جناب الأخ

صالح بن شعمل وكافة الإخوان ·

السلام عليكم ورحمة الله وبركاتة ·

بعد ذلك تفهمون ما من الله به عليكم من نعمة الإسلام وبركة الله ثم بركة الإسلام ·· هالأمان الذي حقن الله به الدماء ، وامتد الضعيف به ، وحصل به الراحة لجميع المسلمين ·

ولكنني سمعت هالأيام بعض الأخبار التي أزعجتني ،وأحببت تبليغكم لأجل أولا النصيحة ، والثاني الإنذار ·

بلغني خبر أن به ناس يتكلمون مع الآخرين : أحد يقول : أنا متهمكم بدم ·

واحد يقول : أنا متهمكم بضربة ·· أو عندكم لي ضربة ·

واحد يقول : عندكم لي حلال ·

تعرفون أن هذا الأمر قد دميناه مرتين :

الأول : أول ما هاجروا المسلمين والتفتوا لأمر دينهم ·· دمينا الفايتات كلها ·

والثاني : يوم القرعة (٢٣) دمينا ما فات في القرعة وقبل ···· إلى آخر هذه الوثيقة التايخية النفيسة ·

قال أبو عبدالرحمن : هكذا وحد عبدالعزيز دولته ، وهكذا نهض برعيته تعليماً ووعياً صحياً ودينياً واجتماعياً وسياسياً ،وهكذا بفضل الله وفر لها الأمن والغذاء والدواء ، وظل الحكم بشرع الله متوارثاً منذ المحمدين (محمد بن سعود ،ومحمد بن عبدالوهاب) رحمها الله إلى هذه اللحظة ·· وظل متوارثاً إلى هذه اللحظة البيعة على كتاب الله وسنة رسول الله ، وظلت المرجعية

(٢٣) حدثت وقعة القرعة بعد معركة السبلة ·

كتب السلف من جيل الصحابة إلى جيل التابعين إلى جيل أحمد بن حنبل وعلماء الحديث ٠٠ إلى جيل ابن تيمية ٠

ولا يزال واجبنا تصحيح المفاهيم التي تخرج عن منهج السلف ، ولا نكون أمعيين مع ذوي طفرة لم يجرِّبوا الحكم الإسلامي قط ، واجتهدوا في أصول الفقه فكاد الفقه عندهم يكون وضعياً ، ورأوا أن الغاية تسوِّغ الوسيلة في التعامل مع أنصار الشيطان ، واستسهلوا مذاهب الفرق الضالة في التهوين من حق الراعي ، فلم يتحرجوا من قبولها ٠

ومن مقتضيات الورع ، وتحكيم موازين العدل : النظر بإكبار إلى تصميم هذه الدولة على التمسك بالإرث السلفي - على الرغم من كل الضغوط العالمية حولها - ، فكانت عند المبطلين نشازاً ؛ لأنها الدولة الوحيدة التي تحكم بشرع الله ، ويكون دستورها الإسلام ٠٠ وعندما قامت ثورة ٥٢ اختلف القانونيون والسياسيون : هل يكون الدستور الإسلامي مرجع الدولة ، أو من مراجعها ، أو لا يكون مرجعاً ؟ ٠٠ فاختاروا الثانية !! ٠٠ ولأن في مؤسسات هذه الدولة السلفية دوائر الحسبة ، والقضاء الشرعي ، وتنفيذ الحدود ٠٠ وهي الدولة الوحيدة التي لم يستبح إعلامها إحياء مناسبات التصوف والتدروش ؛ لأنها لم تقر ذلك في الداخل ٠٠ وهي عند المحققين بلد النِّزاع والطائفة المنصورة ٠

ومنذ عهد الملك فيصل رحمه الله تنفست الصهيونية باسم حقوق الحيوان لمحادة شرع الله في شريعة الفداء بمنى ، فصمدت الدولة وأبت ولا تزال - رعية وراعياً - على عقيدة أن بطن الأرض خير من ظهرها إذا مست العقيدة والشريعة ، وسيمت خسفاً أن تفتح الباب على مصراعيه لعدو غادر صالحه الأشقاء وهي تعلم كيده الخفي لإفساد الدين والمال والحرث والنسل

والعقل .. فأبت - وهي لم تزايد قط باسم القومية والوطنية ، بل كانت دعايتها إسلامية - ، وتجرعت إرهاقاً مالياً وشبهه من جبروت وفاق العدو الموحد .

وتحاول أن تدرك بالسياسة ، ودعاء الرعية ، وإصلاح العلاقة بالله ، وولاء أبناء الفطرة والملة والنحلة ما يدفع عنها مالا تقوى عليه من قدر كوني غالب .

ولا يشك عاقل أن بنية هذه الدولة المسلمة تأبىأن تُسحق دينياً ومنها عين تطرف ؛ لأنها إن اضطرت إلى ذلك أخذت بعقيدة اللطف المذكور في الظاهرة الأولى ، وهو الاصطبار لكل قوى الأرض ثقة بعناية الله ونصره بعد انقطاع الجهد من الأسباب الدنيوية الموصلة في مجابهةعدو لم تتمن لقاءه .

إذن فقه الدعاة لواقع الحكومة المسلمة وقواها وواقع الوفاق العالمي وقواه يتطلب مواقف مؤمنة راشدة تجاه دولة تحترق بهموم المسلمين وهمومها .

وشعبها عربي مسلم خصوصيته أنه ذو ملة واحدة ، ودولة مسلمة .. وهو دوحة العروبة ، ومنه انتشر الإسلام ورفرفت رايته ، وفيه عادت السلفية الصالحة .

وشعب بهذه الصفة برعيته وراعيه يجب أن تكون الأمة فيه واحدة ، فلا تُحرج القيادة التاريخية المسلمة التي اكتسبت وجودها التاريخي المديد بالبيعة الشرعية ، ونشر عقيدة السلف ، والوحدة التي ظلت قروناً طويلة ممزقة قبلياً وإقليمياً .

ولو كانت وحدة عبدالعزيز مجرد توحيد رقعة على دعاية عروبية ، وحكومة يديرها القانون الوضعي : لكان في ذلك رنين تاريخي في تاريخنا العربي

الحديث . . ولكن الواقع أن وحدة عبدالعزيز توحد أمة وأطراف مترامية متباعدة على دين الله الأحد الصمد عقيدة وشريعة ، ولم تتوحد هذه الجزيرة بعد عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، وإنما كانت ولاية فيما بعد تُدار من قبل الوالي ليستدفع شرها ويجبي زكاتها بعد عودة العزوة الجاهلية ، والثارات القبلية ، وعادة السلب والنهب .

فأي إزعاج لوحدة عبدالعزيز ولو بالكلمة المنقسمة في مثل هذا الظرف الخارجي يعتبر عدواناً على الذين والأمة والوطن . . إن الكلمة المزعجة إحراج للأمة ، وجناية على وحدة قائد مسلم ظل نصف قرن محارباً في حالة من الفقر والجهل وغياب الوازع الديني والسلطاني .

والْمَلَلُ من النعمة رخاء وأمناً وتعليماً يشبه ملل القوم المذكورين في سورة سبأ ، فجازاهم الله بالتمزق وسلب النعمة .

وهل أخطر من إحراج هذه القيادة بظواهر من فوضوية التعبير ، وتهوين حقوق البعية والولاء في صدور الدهماء التي يقل فيها التخصص ، ويعم فيها الهوى والشبهة والشهوة ؟ ! .

إنها ظواهر لا تقرها أصول الشريعة المطهرة .

قال أبو عبدالرحمن : ويبين معنى الإحراج الذي أعنيه بمواقف رشيدة أو استفزازية من الوقائع التي سردتها آنفاً . . ومعالم تلك المواقف في الملامح التالية :

الملمح الأول : الإيمان بأنه لا يليق بالمسلم أن يتبنى شعارات طرحها كيد أعداء الملة دعائياً وفكرياً ثم تبناها العالم الأقوى سياسياً بضغوط اقتصادية وتهديدات عسكرية . . ونحن نعلم أن تلك الشعارات ذات مضمون رديء بميزان تفكير المجتهد المسلم .

ومن ذلك شعار الحرية ، وإذا أطلق شَمِلَ حريةَ السلوك ومنه التعبير ..
ونحن نعلم أن الأصل في دين الله العبودية لله وحده لا الحرية من شرع الله ، ولا يملك العبد من الحرية إلا ما ملكه إياه ربه .

وأوامر الشرع ونواهيه وعقوباته وجزاءاته قيود وليست حريات ، وإنما الحرية للشرع بأن يُسمع ويمارس .

وليست العبودية لله شرعاً محل استغراب ، لأن الإنسان عبد الله قضاء وقدراً ، وكل شيء في الكون بقانون وقدر .

والإنسان ليس حراً في كينونته حتى يُعطى الحرية في التشريع لنفسه ، بل هو محكوم بحتميات القدر ولادةً وموتاً ووضعيةَ حياةٍ محصورةٍ في الغنى أو الفقر ، والصحة أو المرض .. إلخ .

وإنما الرحمة والعدل في شرع الله للإنسان : أن ربه يضاعف له المثوبة ، ويسقط عنه التكليف والجزاء إذا فقد الحرية في ترك محرم أو فعل واجب ..
وعقيدة المسلم أن كلَّ مجازى بعقوبة من الله مالكٌ لحريته ، منقطع عذره .

وحرية المسلم في إبلاغ الشرع إيماناً وعقيدة تنظمه أحكام الجهاد والسلم حسب القدرة والمصلحة .

وحرية المسلم في إبلاغ جزئيات مسائل العقيدة ينظمه أحكام التعامل مع أهل القبلة في اختلافهم في جزئيات التصور .

وحرية المسلم في إبلاغ الاجتهاد في الفروع الفقهية ينظمه المسيرة التاريخية للمسلمين مع اختلافهم في الفروع بناء على أن المخطيء النزيه له أجر واحد وليس عليه وزر .

وحرية المسلم في إبلاغ المصلحة الدنيوية في حرثنا وآدابنا ينظمه التحاكم إلى أهل التخصص والخبرة .

وحرية المسلم في الدعوة وتغيير الخطأ والمنكر يحكمه وينظمه كل مامر إضافة إلى المعادلة بين حق البيعة وحق الحسبة وأصول تدافع المصالح والمفاسد .. والأثرة التي أمرنا رسول الله ﷺ بالصبر عليها توزن بواقعها بأن تكون أثرة يموت فيها الفرد جوعاً أو عرياً ، أو ظلماً في عرضه أو ماله أو دينه ، أو أن تكون أثرة يفقد فيها الفرد استكثاراً من الحطام وهو آمن في دينه وماله ونفسه وعرضه .

كما توزن الأثرتين بكل ما مضى من معادلة بين المصالح والمفاسد ، ومعادلة بين حق الحسبة العام وحق الراعي الخاص .

وكل هروب عن الباب الفقهي عن أحكام الراعي والرعية وأحكام الإمامة فإنما هو رغبة عن الشرع من جانب آخر ، وتأثر بالشعارات التي يطرحها كيد الأعداء .

قال أبو عبدالرحمن : ويضاف إلى هذا أن الحرية كما قلت مراراً ليست قيمة في ذاتها كالحق أو الباطل ، والخير أو الشر .. وإنما القيمة في الأمر الذي تكون منه الحرية ، فالتحرر من فعل الخير ، أو قوله ، أو اعتقاده شر .

إذن ترديد أعداء الملة لكلمة الحرية مرفوض في تفكير المسلم للأمور التي ذكرتها ، وللواقع الرديىء الذي أفرزه شعار الحرية .

وأشمل من شعار الحرية في الضلال والتغرير بالدهماء شعار الديموقراطية، وتعيير وثلب الوالي المسلم القائم على حدود الله حسب القدرة ، وحسب ميزات المعادلة بين المصالح والمفاسد .. وأكبر عيب له أنه لا يطبق نظاماً ديموقراطياً كما يطبقه أعداء الملة .

والسر في ذلك أن الديموقراطية ترجمة وممارسة تعني حكم الشعب للشعب بحيث يكون التشريع تصوراً ونظاماً وإدارة قانوناً وضعياً ينبع من

أهواء البشرية وشبهاتها وشهواتها ، فيكون المؤدى التحرر من دين الله والعبودية للشهوة والشبهة .

إذن لا نُعين كيد الأعداء بإحياء شعارهم ، بل نطرح الشعار سلفية تطالب بالعبودية لله وشرعه .. وقد علمنا من المسيرة التاريخية أن أمور المسلمين لم تطرح طرحاً ديموقراطياً يُستفتى فيه عامة ذوي الجهل والشبهة والشهوة ؛ لأن النموذج الذي يتغنى به متمسلمو بعض أبناء العصر الحديث إنما كان في إرجاع الأمر إلى ستة من الصحابة في عهد عمر رضي الله عنهم .. وهذا ليس هو نموذج النظام الديموقراطي ، لأن عمر رضي الله عنه لم يرجع الأمر إلى سواد الأمة وغوغائيتها ، وكان أولئك الستة فاضلين مفضلين من قبل رسول الله ﷺ ، والشورى بينهم ، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما حكم بينهم ، ولم ينتخب واحداً منهم سواد العالم والأجناد .

ومعنى تفضيلهم من قبل رسول الله ﷺ أنه مات وهو راضٍ عنهم ، وهم من العشرة المبشرين بالجنة رضوان الله عليهم ، وهم أهل المشاهد .. وهم في تقدير عمر أقرب أهل الشورى إلى رسول الله ﷺ .

كما أن ولاية أمر المسلمين بعد ذلك في القرون الأولى الممدوحة وفي القرون التي تلتها من عصور المجد التاريخي للمسلمين كانت دون مستوى ما حصل في عهد الخلفاء الراشدين ، ومع هذا قبل الفقه الإسلامي شرعيتها في أصوله وموارده ، وأوجب حقها عدول الأمة من الصحابة والتابعين والفقهاء ذوي الاجتهاد الشرعي ، وسلموا للسلطان البيعة بشرط صحة الأداء .

والبيعة لا يستمر انعقادها بشرط العصمة والسلامة من الأخطاء ، وإنما تنعقد ابتداء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولا تنفصم إلا بكفر بواح .

وما دون ذلك من الأخطاء أو القصور عن الكمال يعالج بالحسبة حسب شرطها من مراعاة المصالح ودرء المفاسد ٠٠ بالإغضاء عن المفسدة الصغرى من أجل المصلحة الكبرى ، وبالإغضاء عن المصلحة الصغرى خوفاً من المفسدة الكبرى ٠

وأهل الشورى في دين الله هم أهل الحل والعقد من العلماء المستنبطين للأحكام الشرعية ، والولاة المنفذين لها ، وأهل التخصص في شؤون دنيانا من الأطباء والمهندسين والمزارعين ٠٠ إلخ ٠٠ إذا كان الطرح عن أمر دنيوي ٠

وليس للدهماء والغوغائية مجال ؛ لأنه إذا استخرج أهل العلم والتخصص لم يبق في الغوغائية إلا الجهل والشهوات والشبهات ٠

إذن لا نساوم على وجودنا التاريخي ، ووحدتنا الإقليمية ، وكينونتنا الشرعية بمزايدات الديموقراطية وقد عرفناها ترجمة وممارسة ، وخبرنا واقعها الذي نبتت فيه ٠

وإنما يكون الطرح سلفياً عن شورى شرعية إن نقصت دون الكمال عودلت بمعايير شرعية عن حق الولاية الأخص ، وحق الولاية وحق الحسبة الأعم ٠

والملمح الثاني : أن يحرص المسلم داعياً ومحتسباً أن لا يكون في دعوته مجال بأن يكون للكافرين على المسلمين سبيل بعد وحدتهم إقليمياً وتوحدهم دينياً ٠٠ ومن جَعْلِ السبيل للكافر أن تتخذ أجهزة العدو الكافر المستعمر منبراً للإرجاف بالدولة ، وجحد حسناتها ، وتكبير أخطائها ، وبهرجة الأكاذيب ٠٠ فكل ذلك عمالة غادرة في يد العدو قد تكون مبحوحة مخنوقة بالتفاف جمهور العقلاء من ذوي الحل والعقد ٠

وقد تكون قدراً خائباً محدود الكيد يمارس به العدو مزيداً من الضغط

لإحراج الأمة في اقتصادها وحرية دينها ٠

ولا يقولن قائل : إن الدولة تتعامل مع الدول الكافرة ؟! ٠

قال أبو عبدالرحمن : التعامل مع الكفار شريعة الأحكام السلطانية ٠٠ جعلها الشرع لولي الأمر بمقدار ما يحقق للأمة المستطاع من المصالح ، ويدفع عنها ما يقدر على دفعه من المفاسد ، فهو تعامل سلطاني شرعي لحفظ وحدة الأمة وجلب المصلحة لها أو دفع المضرة عنها ٠

وسنة الله أن تتعاون الدول فيما بينها بشرط الأحكام الشرعية السلطانية ٠

ولم يجعل الله للفرد أن ينبذ مجتمع المسلمين ودولتهم ويسعى في الكيد لوحدتهم وأمنهم بأي نوع من تدليل المستعمر الكافر ٠

والملمح الثالث : أن المفكر المسلم أولى الناس بالانعتاق من الأمية السياسية ، وليس الفقه السياسي في التحاكي بتعليل أحداث جزئية تعلل بعلل مؤقتة غير كافية ، وتغفل عن الضغوط الخفية التي تحكم البشر على الأرض هذا اليوم ٠

ولكن الفقه السياسي الحقيقي الذي يوافق حذر المسلم وتطلعه هو الوعي بالمسار التاريخي البشري الأعم ٠

ولا يعبأ هذا الفقه ببعض الجزئيات من الأحداث المعاصرة التي يحللها اللعلاع الإعلامي في نطاق الظواهر الساذجة وإن قل رصيد الفقيه من معرفة النطق الصحيح لبعض الأعلام العمالقة أو الأقزام في مسرح الأحداث الجزئية ٠٠ أو إقامة النطق الخواجي الصحيح لاسم مدينة أو نهر أو قصرٍ تجمُّعٍ في أنحاء العالم ٠

يكفي لحذر المسلم وتطلعه في ميدان الفقه السياسي الوعي بأننا مستضعفون عسكرياً لقصور حظنا من العلم المنتج للقوة والعدة الحربية ، وأن لنا تاريخياً

ذا قرون عديدة حكمنا فيه العالم ، وأن الكفر ملة واحدة ، وأن ملل الكفر مهما بلغ العداء بينها مجمعة على كرهنا وسحقنا ، وأنهم مجمعون على الكيد لنا ، وأن الله بوعده الشرعي لن يسلطهم على سحقنا ، وإنما ينتصرون علينا بالعميل والمأجور والساذج منا .

ومن المتحالفين علينا وثني لا يقدر فكرياً على صدنا عن ديننا أو دعوتنا إلى دينه ، ولهذا فهو يعلن الكره لنا ويحاربنا بالسلاح .

ومنهم كتابي بين الله كفره وضلاله إلا أن سورة المائدة وآيات غيرها مع الأحاديث الصحيحة عن غدرهم بنا آخر الزمان أثنت على حلمهم ورأفتهم وأنهم أقرب مودة وأقرب إلى الاتعاظ .. إلا أنهم بدافع الاعتقاد عملوا على أن نكفر باتباعهم أو بإبعادنا عن ديننا إلى أي سبيل ، وأنهم فيما بعد تربوا على العنف والظلم لأن عدواً لنا آخر من أهل الكتاب المغضوب عليهم أحكم حبل المكيدة ، فوقعنا نحن المسلمين وهم في جور المغضوب عليهم .

فالأولون أسقطت دولهم ، ثم أبعدوا عن دينهم باسم المجمعات السرية التي أفرزت ديانة صهيونية سياسية تسرع بفساد العالم لتقوم الدولة العالمية الواحدة ، فبالإباحية والديموقراطية والحرية والمساواة التي تلغي الفوارق وتستند على الحق الطبيعي أو القانوني : أنهكوا الجسد ، وثلموا سلاح الأخلاق ، وجعلوا الإنسان آلة رخوة .

وبالفلسفات الإلحادية المتعددة المذاهب والشبه عزلوا الخلق عن الأنس بالله .

ووضعوا أسود البشرية في الأقفاص بملك المال ، والتحكم في الاقتصاد والاختراع والقانون والمحاماة والإعلام ومنظمات الاغتيال أو التشهير .

ووعي المسلمين المستضعفين بكيد المغضوب عليهم لأهل الديانتين

السماويتين متقدم جداً ، ولكنه لا رأي لمستضعف يحاربه المسلوبون من أبناء جلدت .

ووعي أهل الديانة الأخرى مخنوق بأمية أفرادهم ، فهم في الأغلب أميون إلا في مجال تخصصهم الفكري أو الحرفي ، أو محصور في قلة من المفكرين لا يستطيعون التوصيل لهيمنة المغضوب عليهم على المال والإعلام .. إلخ .

ولا يعلم الناس ماذا سيجري في قدر الله إلا القطع – بدلائل شرعية – بأن الإسلام ستعود له دولته ، وأن الكتابي الآخر سينتصف من المغضوب عليهم ويقطع الحلف الدنس .

قال أبو عبدالرحمن : إن الأمة مكونة من فرد ومجتمع ودولة .

وكل صنف من هذه البُنى يتصف بالإيمان أو الكفر ، والتقوى أو الفسق .. والأمر في الفرد واضح .

ويكون المجتمع كافراً إذا كان الكفر فيه علنياً ممارسة وأعرافاً وإن وجد أفراد منكرون ذلك غير قادرين على التغيير .

ويظل الأفراد على إيمانهم ، ويظل المجتمع على كفره .

إذن صفة المجتمع المسلم أن يكون عَلَنُهُ معصوماً لا يكون الكفرأو الفاحشة فيه عرفاً ! .

وتكون الدولة كافرة إذا ألغت الحكم بما أنزل الله ، وحكمت بغير ما أنزل الله .

ومن صور ذلك أن تعطل حكماً شرعياً مثل مقادير مواريث المرأة ، وأن تحكم بغير ما أنزل الله كالتسوية بين الرجل والمرأة في الميراث محادة لحكم الله الشرعي بأن للذكر مثل حظ الأنثيين .

وصفة كفر الدولة :

١ - أن تسن النظام بتعطيل شرع الله والحكم بغير ما شرع .

٢ - وأن تسن لتطبيق النظام الكافر العقوبات والجزاءات .

٣ - وأن تنظم الأجهزة التنفيدية لذلك .

وكل واحدة من هذه كفر ، إلا أن الكفر درجات وطبقات .

والتقصير في تنفيد الأحكام الشرعية غير إلغائها والحكم بغيرها .

والتقصير في التنفيذ غير التعطيل ؛ لأن التعطيل بإطلاقٍ رغبةٌ عن شرع الله .

أما التقصير في بعض المرات فإن كان عن محسوبية فهو جور ، وإن كان عن ضعف فذلك عجز إداري .

وإنكار الجور والفساد الإداري له أحكام غير أحكام تغيير الكفر .

وصور تحمل الولاية متعددة وشرط أدائها واحد .

فأما التحمل فكان بعهد من الله سبحانه أن يلي أمور المسلمين عبده ورسوله محمد بن عبدالله ﷺ ، وبعهد من محمد ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وبعهد من أبي بكر إلى عمر رضي الله عنهما مع تسليم الأمة لثاني الشيخين .

وبشورى وانتخاب نظمه عمر رضي الله عنه قبل أن يلقى ربه .

وفي كل صورة من هذه الصور المليحة كانت البيعة الشرعية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وتاريخ المسلمين اليوم أربعة عشر قرناً ونيفاً .

وعمر هذه الصور الخِّيرة بعد رسول الله ﷺ ثلاثون عاماً فحسب من أربعة عشر قرناً فيها القرون الأولى الممدوحة .

وتغيرت صور التحمل منذ معاوية رضي الله عنه ، ولكن بقي الأداء بشرطه ،

وبقيت الولاية صحيحة لأمور :

أولها : أن البيعة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وثانيها : نتيجة ذلك أن الطاعة في المعروف .

قال أبو عبدالرحمن : وعدم الطاعة غير الخروج .

والفارق أن المسلم إذا أمر بمعصية دون الكفر يعصي فلا ينفذها .. وله أن يتحمل صنوف الأذى من أجل ذلك .

ولكنه لا يخرج ولا يؤلب .

وثالثها : أن الأئمة والعلماء صححوا ولايتهم بالبيعة ، ونفذوا أحكام البيعة من خلال أجهزة الدولة بالالتزام ، وبالمساهمة في القضاء والحسبة والتدريس والسفارة والجندية .. إلخ .

ومضت أحكام المسلمين بيعاً وقرضاً وهبة ووقفاً ، وطلاقاً ونكاحاً .. وقصاصاً وحدوداً .. لم يقل أحد من العلماء لا تمض أحكام المسلمين في ظل ولاية تغيرت صورة تحملها منذ معاوية رضي الله عنه .

والأئمة والعلماء الذين عقدوا البيعة ونفذوا الولاية إنما هم جيل التابعين ، وجيل أئمة الفقه مثل مالك بن أنس .

بل مثل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله الذي ضُرب وأدمي ظهره وأوذي من أجل أن يقول ما لا يعتقد من قبل خلفاء لم يتحملوا الولاية كما تحملها عثمان رضي الله عنه .

ومع هذا لم يخرج ، ولم يؤلب على الخروج ، وقال : لو كانت لي دعوة مستجابة لذخرتها للسلطان !! .

والإمام ابن المبارك نثر العبرة من ذهاب الدولة الأموية غير قادح في صحة ولايتهم ، وذلك بقصيدته : « وَهَى من أمة بنيانها » .

وفي قصيدته النونية أشاد بفضل السلطان حتى لا يكون ضعيفنانهباً لأقوانا .

وكان الإمام الورع الزاهد الجريىء ابن المبارك في ظل سلطنة عباسية .

وعندما بويع يزيد بن معاوية قال أبو عبدالرحمن عبدالله بن عمر رضي الله عنهم : إن كان خيراً رضينا ، وإن كان بلاءً صبرنا .

وقال الإمام أبو عمر ابن عبدالبر : « وأما جماعة أهل السنة وأئمتهم فقالوا : الاختيار أن يكون الإمام فاضلاً عالماً عدلاً محسناً قوياً على القيام كما يلزمه في الإمامة .

فإن لم يكن فالصبر على طاعة لإمام الجائر أولى من الخروج عليه ؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وانطلاق أيدي الدهماء ، وتبييت الغارات على المسلمين ، والفساد في الأرض .

وهذا أعظم من الصبر على جور الجائر » (٢٤) .

قال أبو عبدالرحمن : والجور درجات من الظلم باليد واللسان تنال النفس والمال .

وقد يدافع المسلم حسب قدرته عن نفسه وبدنه وعرضه وماله ولا ينزع يداً من طاعة ، ويسأل الله الذي له .

قال أبو عبدالرحمن : هذا ما يتعلق بالجور ، وأما التقصير الذي يعذر به الإمام فليس فيه إلا محض الطاعة وأنا أذكر نماذج ، فمن ذلك قدر الله الكوني الذي لا يغيره إلا قدر لله كوني آخر ، وهو كون الحرب في هذا العصر بوسائل دمار تأكل الرطب واليابس ، ويسلم فيها المحارب ، ويموت فيها عوالم غير

---

(٢٤) الاستذكار ١٤/٤٠ - ٤١ .

محاربين من مدنيين غير مدربين وشيوخ وعجزة وأطفال وحيوان ونبات وبلدان .

ووسائل الدمار هذه يملكها غير المسلمين صناعة وتسويقاً واحتكاراً .

والعوالم المستكبرة تسوقها دفاعاً لا هجوماً ، أو هجوماً وفق أهداف محددة .

وبهذا القدر الكوني عم عجز كافة المسلمين عن عزائم يطلبها منهم دينهم ، وعن حقوق لا تسترد إلا بجهاد بالأنفس .

وصفة هذا العجز على الحقيقة أنه ليس تقصيراً من الولاية المسلمة ، ولكنه عجز حتمه قدر الله الكوني .

والشجاعة في خضم هذا القدر الكوني أن تجنِّب الولايةُ الأمةَ حرباً مدمرة شاملة مشردة بكل ما أمكن من الأعراض والحيل وبعض التنازلات التي هي بِنيَّة الحل الوقتي .

فإذا لم ينفع أي عَرَضٍ ، ولم تفلح أية حيلة سياسية ، ولم ينجع أي تنازل مؤقت ، فحينئذ تصبح الحرب قدراً كونياً آخر ، فلا بد حينئذ من الاصطبار لها مع اللجوء إلى الله والتوكل عليه .

والتوكل المطلق مجرداً عن الأسباب إنما يكون عند فقد الأسباب .

وربما اختلطت الأمور على بعض المعاصرين ، فظن أنه مطلوب من الولاية المسلمة اليوم أن تعلن الحرب على من بيدهم القوة النووية لأن التكافؤ غير مشروط .

وربما استدل بقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي رواه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى .. قال : حدثنا محمد بن عمر الواقدي : عن هشام بن سعد : عن سعيد بن أبي هلال : عن أبي قبيل : عن عبدالله بن عمرو بن

العاص قال : كتب أبو بكر الصديق إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهم : أما بعد فقد جاء ني كتابك تذكر ما جمعت الروم من الجمع ٠٠ وإن الله تعالى لم ينصرنا مع نبينا ﷺ بكثرة عدد ، ولا بكثرة خيل ولا سلاح ، ولقد كنا ببدر وما معنا إلا فرسان ، وإن نحن إلا نتعاقب الإبل ، وكنا يوم أحد وما معنا إلا فرس واحد ، وكان رسول الله ﷺ يركبه ٠

ولقد كان الله يظهرنا ويعيننا على من خالفنا » (٢٥) ٠ اهـ ٠

وربما استدل بعضهم بنزول الملائكة عليهم السلام تحارب مع المسلمين لما عدم تكافؤ العدد والعدة في أحد ٠

قال أبو عبدالرحمن : بغض النظر عن الواقدي فما رواه صحيح في الواقع ، فقد انتصر المسلمون وهم قلة يوم بدر ، وانهزموا وهم كثرة يوم حنين ، وانتصروا مرات عديدة مع ضعف العدة ، وقلة العدد والمؤونة ٠

ولكن لا يجوز قياس الحالة التاريخية على حالنا هذا اليوم ، والسبب أن المسلمين آنذاك يملكون عدة حربية مثل عدة عدوهم ، ولكنها لا تكافؤها لضعفها أو قلتها ٠

أما نحن اليوم فلا نجد عدة الحرب الفاصلة وهي القوة النووية التي نرهب بها عدونا ٠

فانعدام القوة العسكرية شيىء آخر غير وجودها بغير شرط التكافؤ ٠

والقوة الحربية التي يسمح بها عدونا ثمناً لاستنزافنا تدمرنا فيما بيننا ولا تخيف عدونا ؛ لأنها محدودة القدرة مشروطة الهدف ٠

إذن الولاية المسلمة التي تجنب رعيتها الحرب ، وتحاول تجنب أسبابها

---

(٢٥) الاستذكار ١٤/٤٨ - ٤٩ ٠

بشتى الحيل والأعراض : ولاية في منتهى الشجاعة والرحمة والحكمة ·

وإذا وجدت ولاية مسلمة يُظاهر عليها ويحادها ابن بيئتها بتصيد الأخطاء وتكبيرها ، وجحد الحسنات وتصغيرها ، ثم لم يجد له وزراً يشجعه غير إعلام العدو الكافر : فواقع حاله أنه يتمنى حرباً أهلية ينظمها العدو الكافر بسلاح دمار رسم العدو حدود قدرته وهدفه ·

وحينئذ يحقق عدو نفسه ودينه ومجتمعه ما حذر منه أهل السنة والجماعة من « ·· استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وانطلاق أيدي الدهماء ، وتبييت الغارات على المسلمين ، والفساد في الأرض » ·

والنموذج الآخر للقدر الكوني الذي لم يكن سببه تقصير الولاية المسلمة وجود البنوك الربوية على ساحة العالمين العربي والإسلامي ·

فهذه البنوك لها عند الولاية المسلمة وجودان :

الوجود الأول : وجود عالمي تقوم فيه البنوك على دخول محرمة ·

فهذا الوجود قدر كوني لا يغيره إلا الله ثم وجود دول إسلامية تُوَحِّدُ تعاملها على الدخول المباحة ، وتفرض تعاملها المباح على الأمم الكافرة إذا أرادت أن تكون مستوردة بضاعة أو مسوقة بضاعة ، ولا تخضع للنظام المالي لدى الأمم الكافرة إلا في حالات يحكم الشرع الإسلامي المطهر أنها حالات ضرورة ·

فلو وجدت مثلاً مجاعة لا سبيل إلى حلها إلا بتوريد حبوب من أمة كافرة لا تبيع إلا بتعامل محرم : فإننا نلتمس من أحكام فقهنا المخرج ·

وفيما عدا تصدير البضائع وتوريدها تتعامل الشعوب الإسلامية وحكوماتها في تنمية أموالها بعمليات بنكية مباحة ·

إذن إصلاح شأن البنوك خارج رقعة الولاية المسلمة لا يُعزى تخلفه إلى

تقصير الولاية ، وإنما ذلك قدر كوني تأخذ منه الأمة وتدع حسب الضرورة الشرعية .

والوجود الثاني : وجود للبنك داخل الولاية المسلمة فيعزى إلى تقصيرها أو عدوانها أيُّ تنظيم تبيح فيه التعامل الربوي ، وتحميه بقوة النظام وأجهزة التنفيذ ، والبنوك في بلادنا لا تملك التعامل الربوي علناً بقوة النظام ، ولا ترافع بـه .

والبنك الربوي اليوم قد يقرض مئة ألف ريال مقابل فائدة ٧٠٠/١٠٠ .

فهذه عملة ربوية إذ لا مقابل لنسبة ٧٠٠/١٠٠ غير النقد والأجل .

ولكن هذا بفسق من الدائن والمدين ، وليس بتشريع من الولاية .

وقد يرافع البنك المدين في القضاء الشرعي فيحكم عليه القضاء بالدفع للبنك ؛ لأن قيود التعامل البنكي وبنوده مجردة من أي أثر ربوي .

ألا ترى أن المدين قبض من البنك ثلاثة وتسعين ألف ريال فقط ، واعترف بقبض مئة ألف ريال حتى تكون المسألة مسألة قرض لا مداينة ربوية .

فما ذنب القضاء وهو يحكم على نحو مم يَسْمع ؟ ! .. إنما الذنب ذنب الفرد الفاسق المتستر .

ولا يخلو المجتمع من فاسق أو كافر متستر ولا ذنب للحكومة الإسلامية التي لا تأخذ إلا بالظاهر ، ولا تُدين إلا ببينة ؟ ! .

ورابع أمور الحكومات الإسلامية في القرون الممدوحة بعد الشورى العمرية : أن الدولة لم تفصل الدين عن نظامها ، ولم تأذن للمجتمع بفسق تحميه عصا السلطان .

ومهما قيل عن الخليفة الأموي أو العباسي أو السلطان الذي من الأعاجم

أو المماليك كالذين كانوا في عصر شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب لهم ما يجب على الراعي والرعية .. مهما قيل عن هؤلاء من ضعف ، أو نقص ، أو جور فلم يتدخلوا في دستور المسلمين ، ولم يسوموا علماءهم على تغيير ما أنزل الله .

إن من تربى على تفاسير السلف كابن جرير وابن كثير وروايات الأئمة كصحيح البخاري ومسند أحمد ، وعقائد السلف منذ أحمد بن حنبل إلى ابن تيمية إلى محمد بن عبدالوهاب رحمهم الله : يُستبعد منه أن يُنَغِّص أمن المسلمين واستقامة أمرهم بمفاركة السلطان .

ولكنني أعتقد أن جحد حسنات الحكومة المسلمة وتصغيرها ، وتضخيم الأخطاء والتشهير بها على المنابر ، وتوزيع ألوف الأشرطة في الأسبوع الواحد مقدمات خروج ، بل هو خروج باللسان ، وتعليمٌ للعامة بأن ينزعوا هيبة السلطان ، ويهينوا ما أمر الله بتكريمه واحترامه .

أما كلمة الحق التي تعلن عند سلطان جائر فإنما يكون ذلك في مواجهة السلطان بعيداً عن تأنيب العامة بعد المناصحة والمسارَّة .

وأما التعاهد بأن نقول كلمة الحق وألا نخشى في الله لومة لائم : فذلك عندما يطلب كلمة الحق ذوو الحل والعقد ، أو يُحتاج إلى إسماعهم إياها .

والتعاهد على قول كلمة الحق تراعى فيه أيضاً المصالح والمفاسد كوجوه الحسبة الأخرى .

وإذا وُجد شعب يجمعه دين واحد ونحلة واحدة فإنه معرض للتفرق والتباعد وشتات الأمر لنوازع الأهواء البشرية الباطلة ، ولشهوات النفوس التي تتنافس على أعراض الدنيا والمجد .

والذي يجمع الشعب ويوشج بينه التعاون والتعاضد ، ويرفع عنه التناحر

والاختلاف : إنما هو الدين بشرط وجود دولته التي قامت عصبيتهاعليه .

والعصبية في قاموس ابن خلدون ليست بالمعنى الرديىء اليوم عند العامة الذي لا يصغي لكلمة حق معارضة ، وإنما تعني الحماس للدين الصحيح وكل حق ، والانطلاق منه ، واستمرار العمل من أجله .

والولاء والبراء في الله سبحانه وفي دينه يأتي على درجات تتنقل من الأخص إلى الأعم ، فأخص الولاء ما كان لرسل الله وحوارييهم وخاصتهم صلوات الله وسلامه عليهم .. وبعد نسخ الشرائع بدين الإسلام يكون المثال في التشريع والسلوك والمعتقد محمداً ﷺ وخاصة أصحابه ممن اهتدى بهديه واقتدى بسنته .. فالولاء لهؤلاء ولمن هو على نهجهم من أهل القرون الممدوحة ، فهم السلف .. ويكون الولاء لعلماء الأمة وقادتها وأخيارها الذين لم يحولوا عن معتقد السلف ونهجهم .

ويكون بعد ذلك الولاء لأهل القبلة عامة مع إبغاض مادخل فيهم من بدع وإحداث ، ومحاربة بدعتهم وفق مقتضيات الحسبة الشرعية ، ووفق المعادلة بين المصالح والمفاسد .

ووجه الولاء والبراء هاهنا أن لا تخذلهم ولا تناصر عليهم في الدعوة إلى الإسلام بعامة ، وفي حالة كون عدوهم عدواً للدين والنحلة السلفية .

وربما اقتضت وحدة الصف المهادنة والصبر على ما فيهم من بدعة تغليباً لمصالح المسلمين العامة .. وذلك الصبر وتلك المهادنة لا يعني إقرار البدعة ، ولا الترويج لها ، ولا استباحتها ، ولا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق القدرة .

بل إن من منهج الإسلام أن يرتاح قلب المسلم لانتصار الكتابي على الوثني .. ولا يعني هذا الرضى بغير الإسلام ديناً .

قال تعالى : ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

قال أبو عبدالرحمن : إنما فرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب من الروم على أهل فارس الوثنيين ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ .. أي يوم أن تغلَّب الروم على فارس في بضع سنين .. يفرح المؤمنون بنصر الله للروم لكونهم أهل الكتاب .. كما أن المسلمين أهل الكتاب بخلاف فارس ؛ فإنه لا كتاب لهم ، ولهذا سر المشركون بنصرهم على الروم .

وقد أخرج أحمد والترمذي وحسنه ، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس [رضي الله عنهما] في قوله : ﴿ آلم غلبت الروم ﴾ .. قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم كانوا أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال : « ألا جعلته - أراه قال - دون العشر » ، فظهرت الروم بعد ذلك ، فذلك قوله : ﴿ آلم غلبت الروم ﴾ فغُلبت ، ثم غَلبت بعدُ بقول الله ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ .. قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر .

قال أبو عبدالرحمن : هذا الحديث صححه الحاكم ، ووافقه الذهبي والألباني .

وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب نحوه ، وزاد أنه لما مضى الأجل ولم تغلب الروم فارساً ساء النبي ما جعله أبو بكر من المدة وكرهه ، وقال : « ما دعاك إلى هذا ؟ » .. قال : تصديقاً لله ولرسوله .. فقال : « تعرَّض لهم ، وأعظم الخطة ، واجعله إلى بضع سنين » .. فأتاهم أبو بكر فقال : هل لكم في العود فإن العود أحمد ؟ .. قالوا نعم ، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارساً وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا رومية ، فقمر أبو بكر ، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « هذا السحت تصدق به » .

وأخرج الترمذي وصححه والدارقطني في الأفراد والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والبيهقي في الشعب عن نيار بن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت ﴿ آلم غلبت الروم ﴾ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ، لأنهم وإياهم أهل الكتاب ، وفي ذلك يقول الله ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ ، وكانت قريش تحب ظهور فارس ؛ لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿ آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ ، فقال ناس من قريش لأبي بكر : ذلك بيننا وبينكم .. يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ .. قال : بلى .. وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبي بكر : لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه .. قال :

فسموا بينهم ست سنين ، فمضت الست قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم ، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين ؛ لأن الله قال : ﴿ في بضع سنين ﴾ ، فأسلم عند ذلك ناس كثير .

قال أبو عبدالرحمن : حسنه الألباني في كتابه صحيح الترمذي ، وهو صحيح لغيره .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأبي بكر : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع من بين ثلاث إلى تسع ؟ » .

وأخرج البخاري عنه في تاريخه نحوه ، وأخرج الفريابي والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت ﴿ آلم غلبت الروم ﴾(٢٦) .

قال أبو عبدالرحمن : فإذا كان هذا هو مقتضى النص الشرعي عن الاغتباط بانتصار الكتابي على الوثني : فمن باب أولى الاغتباط بانتصار المسلم وإن كان مبتدعاً على عدو الدين والنحلة .

وهذه المملكة رعية ودولة قامت حكومتها خلال ثلاثة قرون على أعلى مثال ومطلب لما يحلم به من يحس بضياع العرب والمسلمين بعد سقوط خلافتهم ، واقتسام تركتهم ، وتمزيق قدراتهم ومواردهم بالثورات الداخلية ، والتصارع على كراسي الحكم ، واغتصاب السلطة بملك عظوظ حقاً ، ووطءٍ عسكري وإن

---

(٢٦) عن فتح القدير للشوكاني ٣٠١/٤ - ٣٠٤ .

تغيرت الأسماء والألقاب ٠٠ فالعبرة بالحقائق ٠

ومن العجب أن التسوُّر على السلطة بغير اسم الملكية يعفي المتسلِّط من أن يكون باذلاً وهاباً للضعيف والمحتاج وذي العيلة ، ولسيد قومه ذي الالتزام فيهم ؛ لأن المتسلط ليس ذا جيب خاص ، والمال مال الشعب ، وهو موظف لا يبذل إلا بقرار الشعب !! ٠

والواقع - في كل تلك التسورات على السلطة - أن الشعب لا يملك قرارا لسياسة المال ، ولا يمنع احتجان المتسلط للمال وتكديسه في بنوك العالم ، ولا يملك وسيلة مواصلات لينظر ولو من بعد أسوار قصور المسؤولين : باذخة المقفلة على بذخ وسرف وبخل لا يمر منها طالب نوال ، أو حامل هم ٠

بينما الملك في تاريخ العالم - ثم في تاريخنا الإسلامي - تعلو مظهريته لهيبة الملك ، وتفتح أبوابه بالرحمات فيشبع الجائع ، ويعود المكروب بالبذل وتجلية الهم ، وتعيش قطاعات من الأمة من عوام الرعية ، ومن فضلائها كأهل المواهب ، وذوي الكلمة في قومهم في حبور ورغد لاتساع فرص ونطاق العمل من جهةٍ اتساعاً لا يحدده قرار إتاحة الفرص في القطاع العام أو الخاص ٠٠ كما يعيشون في حبور من أموال المسؤولين الخاصة ؛ لأن الكرم فيهم جبلة ، والرحمة طبع يغذيه الشرع مع الوفاء لسلف العامة ، والتقدير لمواهب الخلف ٠

هذه هي هيبة الملك وأريحيته في تاريخنا العربي ، ولقد مرت بي كلمة - أظنها في بروتوكولات حكماء صهيون - تضحك مرحاً من مستقبل الجوييم (وهم يعنون المسلمين والنصارى) إذا أخذهم سحر الثورات ، فحطموا رموزهم الوطنية والتاريخية بأيديهم ، وتنكروا لكل موروث ٠

قال أبو عبدالرحمن : وموجز القول أن الثورات التي أنهكت الأمة أفرزت

ملوكاً غير تاريخيين ٠٠ إلا أنه مُلْك كله الأنانية والبخل ، وليس فيه شيئ من الأريحية والرحمة ٠

والملوك والوزراء والأمراء في تاريخنا العربي والإسلامي يبقى لهم ماخولهم الله إياه من ولاية الأمر ولا يحتجنون مالاً ، بل يبذلونه في أجنادهم ، وأصحاب المواهب من رعيتهم ، والفقير والعاني من عامة الأمة ، ويتبنون المشاريع الخيرية ٠

وهذه المملكة لم تكن ملكاً تاريخياً فحسب ، وإنما هي ملك تحالف فيه السيف والقلم لنصرة الدين ، وإقامة دولته ، واشتراط مقتضى البيعة الشرعية ٠

وعندما قلت : إن حكومتها قامت خلال ثلاثة قرون على أعلى مثال ومطلب لما يحلم به من يحس الضياع في أطراف التركة الإسلامية العربية : فإنما أعني ما أقول ٠

فأمثل مطلب قيام حكومة إسلامية تحكم بشرع الله ولا ينفصل دينها عن دولتها ٠٠ ويكون معنى الإسلامية حضوراً علنياً في القضاء والفتوى والحسبة والممارسة والتربية والتعليم وأجهزة التنفيذ ، وأن لا يمارس بقوة النظام أو بمهادنة السلطة ما علم يقيناً أو رجحاناً بطلانه شرعاً ٠٠ وهذا يعني أن النظام مغربل ويغربل شرعاً ٠

وهذا هو واقع المملكة منذ محمد بن سعود إلى فهد بن عبدالعزيز ٠٠ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بحول الله ومشيئته ٠

ومن المطالب المثلى الشعور بالأمة العربية في آمالها وآلامها ٠٠ وهذه الجزيرة عربية صميمة مجتمعاً ودولة يُخشى عليها الحماس القومي أكثر مما يخشى عليها التنكر للعروبة ٠٠ بيد أن دستورها جعل اعتبار العربي حينما

يكون مادةَ الإسلام الحاملَ رسالته ، فكان الإسلام شرطها القومي ، وكان الوعي بالشعوبية التاريخية ضد موروث هذه الأمة محركاً لطموحها ، وكان الوفاء للغة الأمة ونشر تراثها أحد الحقول الذي تعمل فيه قيادتنا بجلدٍ وسخاء .

ومن المطالب المثلى الطموح إلى الوحدة الوطنية .. فكان حاضرنا أصدق وحدة وطنية لبلاد كانت ممزقة .. بيد أن وحدة الدين سلوكاً ومعتقداً هي شرط الوحدة الوطنية في أيدلوجية قادتنا منذ محمد بن سعود إلى عبدالعزيز بن عبدالرحمن .

ومن المطالب المثلى أن يأمن الفرد في بيته وسوقه ، وأن يؤخذ له حقه من ظالمه ، وأن يرفع عنه الظلم ، وأن تتاح له فرصة العمل الشريف ، وأن يُعان في كدحه لبلوغ رزقه الذي كتبه الله له بما أذن الله به من أسباب دنيوية يُعالج بها الفقر والمرض والجهل .. ودولتنا ومجتمعنا مثال نادر في تحقيق هذا المطلب بمن الله وفضله .

وبمعادلة الولاء والبراء التي أسلفتها اندفعت مملكتنا دولة وشعباً في حماس منقطع النظير في مناصرة إخواننا في الملة وكثير من النحلة وإن دخلهم كثير من الوشب والبدعة .. وهذا شعور ديني محض ؛ لأن الماركسية والناصرية والقومية بغير شرطها الإسلامي والطائفية والعرقية الأقلية والشعوبية - ووراء كل ذلك الثقل الصليبي والصهيوني - تسحقهم في كل مكان ، ولا تقوم الأمم ولا تقعد لمصابهم ، فكانت فكرة التضامن الإسلامي ، وفكرة رابطة العالم الإسلامي ، وفتح مراكز الدعوة في كل مكان ، ومناصرة كل تحرك إسلامي ، وفتح مراكز التعليم كمعاهد الدعوة ، وفتح مراكز الإغاثة الإسلامية ، وإنشاء المنشآت الخيرية ، والجامعة الإسلامية .. وذلك إضافة إلى تغذية الجذور في الداخل من فتح المعاهد والجامعات التي تؤهل لحمل أحكام الديانة

فقهاً وتأصيلاً وعقيدة .

بل أكثر من ذلك أخذت المملكة بالأحضان فلول المعذبين في الأرض من إخوان الملة وإخوان النحلة في الأغلب .. ثم بالغت في الكرم ففتحت لهم فرص العمل وهي لا تحس بأن عملهم يسد ثغرة لا يقوم بها ابن الوطن .. ولكنه الإيثار .

ثم بالغت في الكرم فسنَّمتهم مراكز قيادية ، ووكلت إليهم فلذات أكبادنا في ميدان التربية العلمية ثقة بمظهريتهم .

وكانت هذه المملكة دولة وعلماء ومجتمعاً تتأذى وتتألم من مظاهر بدعية غير سلفية ، فتصفح صفح الكريم ، وتذكِّر برفق ، وترضى بما ظهر ، وتكل السرائر إلى الله ، لأنه يحرجها في المحاصة والتدقيق خطر محدق بالأمة كلها سلفيها وبدعيها من شتى مكايد الصهيونية والصليبية من مختلف الدعايات التي يتبناها أبناء جلدتنا من ماركسية وبعثية وقومية .

وبالمعادلة المذكورة يتعاطف السلفي مع نشاط الإخوان المسلمين في محاربة ومقاومة النشاط التبشيري وإن كان في نفس الوقت يغص بالطريقة الصوفية الحصافية الإخوانية ، لأن التدروش عقيدة وسلوكاً عبء على سلفيته التي ورثها عن التابعين ، وورثها التابعون عن الصحابة رضي الله عنهم ، وورثها الصحابة عن رسول الله ﷺ .

والمسلم السلفي قد لا يوجد لديه مشاعر حميمة لحكومة النقراشي سنة ١٩٤٨م ، ولكن هذا لا يعني حبوره بما نسب إلى الإخوان - إن صح - من نسف منشآت ، واغتيال شخصيات .. وفي نَسْفِ المنشآت هلاك النفوس البريئة ، لأن الإسلام بمنطق السلف دعوة في العلن ، وجهاد في العلن ، وصبر وأناة .

ويغص بدعوة البناء بأن على العضو أن يصلي الفجر في المسجد ولو مرة

واحدة في الأسبوع ليتوثق ترابطه مع إخوانه - كما في مجموعة رسائل الإمام - .. كأن صلاة الفجر غير مطلوبة في المسجد كل يوم ! (٢٧) .

ويغص بزعم محمود عبدالحليم في كتابه عن الإخوان أن اليهود أصدقاء أصفياء نعاديهم اقتصادياً لا دينياً !! .

ويغص بالدخيل البدعي والعلماني الجديد إذا التحم بالبدعة القديمة في الفكر الإخواني كقول الترابي : آخذ بقول الطبيب الكافر في حديث الذبابة ولا آخذ بقول الرسول [ﷺ] ، وكجعله اختلاط النساء والرجال في الجامعات ضرورة شرعية لأجل التفوق العلمي ! .

وفتحت المملكة أبوابها لكتب أمثال أبي الأعلى المودودي في نطاق عموم الدعوة وتغاضت عن مقولات لهم غير سارة في كتبهم الأخرى كتشبيه نبي الله يوسف بموسوليني في دكتاتوريته ، وذلك في رسالته تفهيمات .

وما أخذه الشيخ الدويش رحمه الله على كتب سيد قطب رحمه الله لم يكن غائباً عن بال رجال العلم في هذا البلد ، ولكنها المعادلة التي أسلفتها .

وكيد الصليبية والصهيونية ليس سهلاً ، فهما لن يغفلا لحظة عن الكيد لديننا الإسلامي وأهله ، ولهذا رصدت لمقاومة النشاط الإسلامي ثلاثة مظاهر :

المظهر الأول : مجرد الرضى والتأييد باللسان لكل سلطة تضرب الحركيين وتصفيهم تحت شعار مقاومة الإرهاب والتزمت .

والمظهر الثاني : مناصرة بعض السلطات معنوياً ومالياً وعسكرياً كما في الجزائر .

---

(٢٧) في هذا الفصل إشارات طفيفة من ضلالات الحركيين التي نكرها مؤلف كتيب فتنة التكفير والحاكمية طبع مطبعة سفير الصادر آخر عام ١٤١٦هـ .

كريم حقهم ، وأننا فتحنا لهمْ الأحضان باسم الدين والسلفية كما ظهروا لنا بهذا المظهر .

ونرجو أن لا يظهروا - لما آمنوا وشبعوا وأثروا - بخلاف ما كنا نعهدهم أيام المحنة .. فإن لم يفعلوا فأهون ما يعاملون به العدل .. والعدل لدى المسيئ مر .

ألا يعلم هؤلاء أن سماحة الشيخ عبدالرزاق عفيفي - قدس الله روحه ، ونور ضريحه - لما لقي ربه أصفقت المملكة كلها حزناً عليه ؛ لأنهم يرعون له فضله وأستاذيته وسلفيته وصدقه ؟! .

***

الفصل الرابع : الديموقراطية ، والحزبية ، والحريات المشروعة :

[قال الإمام أبو محمد ابن حزم : « ولقد تسببت إلى سؤال بعضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس ، فما وجدت عنده مزيداً على أن قال لي : أنا حر لست عبد أحد .

فقلت له : أكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة ، فهم أحرار مثلك .. إلا قوماً من العبيد هم أطول يداً منك ، وأمرهم نافذ عليك وعلى كثير من الأحرار .. فلم أجد عنده زيادة ، فرجعت إلى تفتيش أحوالهم ومراعاتها ، فأفكرت في ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذي لا سبب له ، فلم أزل أختبر ما تنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم ومن مراميهم في كلامهم ، فاستقر أمرهم على أنهم يُقدِّرون أن عندهم فضل عقل وتمييز ورأي أصيل .. لو أمكنتهم الأيام من تصرفه ، أو وجدوا فيه متسعاً لأداروا الممالك الرفيعة ، ولبان فضلهم على سائر الناس .. ولو ملكوا مالاً لأحسنوا تصريفه ، فمن هاهنا تسرب التيه إليهم وسرى العجب فيهم .

مداواة النفوس ضمن رسائل ابن حزم
١/٢٩٦ - ٢٩٧]

الديموقراطية نظرية ذات مفهوم لغوي ومفهومات حكمية انضمت من التطبيق ٠

فالمفهوم اللغوي بمعنى سلطة الشعب ٠

أو الشعب يحكم نفسه ؛ لأنه مصدر السلطات ٠

أما مفهوم الحكم فيتلخص في التالي :

أ - أن الشعب يفوِّض السلطة لغيره ، لأنه يستحيل مباشرته للسلطة ٠

ب - أن التفويض بحرية الشعب ، وتقنينه ، ومراقبته ٠

فبحريته اختار نظام الحكومة الديموقراطية ٠

وبتقنينه جعل له ممثلين ينتخبون بالقرعة السرية ٠

وجعل لوقت الحكومة أجلاً يعقبها اقتراع آخر ٠

وجعل لنفسه حق المراقبة بين انتخاب وانتخاب ٠

والحكومة منفذة للدستور الذي وضعه الشعب ، لأنه وفق الحق الطبيعي !! (٢٨) ٠

ولهذا كانت الحكومة مسؤولة أمام ممثلي الشعب ٠

جـ - من التطبيق العملي تحدد المفهوم اللغوي (سلطة الشعب) إلى مفهوم واقعي هو (حكومة الأغلبية) ٠

د - للتوفيق بين الشمول اللغوي والتقزيم الواقعي كان من شرط الديموقراطية وجود أحزاب ذات برامج متعددة ، لأنها تصنف رغائب الأفراد ٠

هـ - من شروط الديموقراطية الحرية كحرية الصحافة في إبداء الرأي ، وحرية التجمع ٠٠ إلخ ؛ ليتكوَّن من ذلك رأي عام وانتخاب حر ٠

---

(٢٨) صدر عام ١٤١٦هـ كتابي عن الحق الطبيعي وقوانينه ، وهو السفر الأول من هذه السلسلة ٠

و - من شروط الديموقراطيةً مفاتحة الشعب بالأحداث الداخلية والخارجية في مختلف وسائل الإعلام وبشكل منتظم .
لأن هذه المفاتحة إشراك للشعب في الحكم ؛ ليكوِّن رأياً عاماً .
وهذان العنصران حسنان في ديننا ، ولكن هذا لا يسوغ وصف سماحة الإسلام بالديموقراطية ؛ لأن الإسلام ليس حكم الشعب ، ولا سلطته ، وليس الحق الطبيعي مصدَره .

ز - تشترط بعض الديموقراطيات شرطاً لا ينسجم مع الحق الطبيعي الذي هو أصل النظرية الديموقراطية ، وذلك أن بعضهم يشترط وعياً عاماً بأن يكون الشعب مثقفاً مدركاً لمسؤولياته ، وأن لا يكون محكوماً بضغوط كونية كسوء الحالة الاقتصادية .
قال أبو عبدالرحمن : وفي ديننا لو بلغ الشعب الذروة في الذكاء والثقافة فلن يكون مصدراً للشرع .
بل إذا نابت المسلمين نائبة فإن كانت كشف واقعة فالسلطة ليست للشعب بل لذي التخصص في الواقعة ، فإن كان علاج وباء للأناسي فالرأي لأهل الطب ، وإن كان عن آفات في الحيوان فالرأي لأهل الطب البيطري وعلماء الأحياء ، وإن كان عن آفات في الزراعة فالرأي لأهل الخبرة ، وهكذا ؛ لأن الله امتن علينا بحواسنا وعقولنا ومعارفنا ، وأمرنا أن نُسْنِد الأمور لأهلها .
وإن كانت النائبة بحثاً عن حكم شرعي في واقعة قائمة معلومة فالسلطة لعلماء الشريعة فهم أهل الحل والعقد .
وسلطتهم ليست في وضع الحكم ؛ لأن هذا ليس لهم ، وإنما سلطتهم في أخذ الحكم من مصدره تنصيصاً أو استنباطاً ، فهم الأدرى بالحكم الأقدر

على استكشافه .

ح - بمقتضى النظرية الديموقراطية فهدف الشعب واحد ولابد ، ولهذا لا تسمح الأكثرية بحكم الأقليات بحق أكثرية الأصوات في الانتخاب .

وذهب هوبز في كتابه من فلاسفة القرن السادس عشر إلى أن الناس ولدوا أحراراً ؛ ولكنهم لم يستطيعوا الحياة فوضى ، فتنازلوا متعاقدين فيما بينهم ؛ ليقوم مجتمع يحكمه فرد منهم .

واستدرك عليه جون لوك [- ١٧٠٤م] أمرين :

أولهما : تنازلوا عن بعض حقوقهم بقدر ما يلزم لقيام المجتمع .

وثانيهما : أن الرئيس طرف في العقد .

فجاء جان جاك روسو [- ١٧٧٨م] ليصوغ هذه الفلسفة في كتابه العقد الاجتماعي في القرن الثامن عشر .. ومن مذهبه أن الأفراد كانوا أحراراً يتمتعون بكافة الحقوق لكنهم أمضوا عقداً اجتماعياً نشأت بموجبه إرادة عامة لمجموع الأفراد بديلاً عن الإرادات الفردية السابقة على التعاقد ؛ لترعى إرادةُ المجموع حقوقَ الأفراد الطبيعية التي لم يتنازلوا عنها .

والحالة الطبيعية للإنسان هي الفترة الذهبية من حياته ، ولكن الإنسان بفعل الأطماع وبتأثير الأديان تجرد من النقاء الطبيعي إلى حالة من الفوضوية اقتضت وجود عقد اجتماعي يردهم إلى الحالة الطبيعية (٢٩) .

والديموقراطية ثمرة الحق الطبيعي ، والدكتاتورية ثمرة الحق الإلهي .. أما العقد الاجتماعي والحق الطبيعي فكان الفريقان يتلاوحانهما .. ذلك أن

---

(٢٩) الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور علي جريشة ص ١٣٤ .

جروتس [١٦٤٥م] من المدافعين عن الاستبداد ؛ لأنه أفضل الطرق لتطبيق القانون الطبيعي ٠٠ وما دام الناس ارتضوا هذا القانون فليس من حقهم التراجع عنه ٠

ونظرية العقد الاجتماعي اقتضت إبعاد رابطة الدين كما اقتضت عقداً ، والعقد ذاته رابطة ٠

وبهذا ظهرت فكرة القومية والوطنية ؛ لتكون رابطة بدل الدين ٠

ومنهم من نصر الاستبداد بغير دعوى العقد الاجتماعي ، بل أنكره ؛ لأنه يمنح الفرد الشعور بالمشاركة في تكوين الدولة ٠٠ وإنما نصر الاستبداد ؛ لأن الحكم غير المطلق معرض للثورات والفتن وصراع الأحزاب ٠٠ ومن هؤلاء جان بودان [- ١٥٩٦م] ٠

والديموقراطية تقوم على فكرة خيالية ، وهي فكرة العقد الاجتماعي ؛ ولهذا ذهب أزمان في القانون الدستوري إلى تعليل عقلي ، وهو أن السلطة نشأت من أجل الأمة ، ومن ثم وجب أن يكون للأخيرة رقابة على الأولى (٣٠) ٠

وقال روبرت م ٠ ماكيفر : « الحقيقة أن الحكم لا تتولاه الأكثرية ، ولا يمارسه جميع أبناء الشعب ، ولكنه عمل تضطلع به دائماً الأقلية ٠

وتنشأ عن هذا الوضع معضلة دستورية حول علاقة الواحد بالأقلية ٠

والمعضلة الأهم تتصل بعلاقة الأقلية الحاكمة بالأكثرية المحكومة ٠٠ فإن كانت الأقلية مسؤولة تجاه الأكثرية كان الحكم دستورياً ، وإذا لم تكن مسؤولة

---

(٣٠) الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١٣٧ ٠

كان الحكم قبلياً أو ليفاركياً (٣١) .

والحق الطبيعي أفرز علمانية من مفهوم أنه حق طبيعي فحسب ينفي الحق الإلهي .

وأفرز يموقراطية من مفهوم أن الشعب يحكم بمقتضى الحرية الفردية والعقد الاجتماعي .

وتعدد الأحزاب يعني الحريات المتعارضة التي اقتضت العقد الاجتماعي فكانت مقتضى ضرورياً ؛ ليحكم الشعب نفسه بنفسه .

إنها مقتضى ديموقراطي من مفهوم الحق الطبيعي .

أما دعوى الديموقراطية الاشتراكية التي نشأت في انجلترا فمن باب الضحك على الأذقان ؛ لأنها ألغت الأحزاب بدعوى رفض تنازع الطبقات .. وفي سبيل ذلك دعت إلى تأميم الصناعات الرئيسة ، وتحطيم قدر الطبقات بإلغاء أو تخفيف الفوارق ، وذلك بالضرائب المتصاعدة ، والتشريع الاجتماعي .

وحينئذ لا يبقى غير دكتاتورية السلطة التي تؤمم وتفرض الضرائب وتضع التشريع .

قال أبو عبدالرحمن : وأكثرية الأصوات باب من القرعة والاستهام لا يأباه ديننا ولكن ذلك في حالين :

أولاهما : حينما تكون الدولة بين انقسام متكافيء في تقريرات ذوي اختصاص ما ، ولا تملك مرجحاً من خارج ، فتأخذ بأغلب أصوات ذوي القرارات المنقسمة ؛ لأنهم أهل الاختصاص .

---

(٣١) تكوين الدولة ص ١٨٧ .
والاوليفاركي استبدادي .. انظر المصدر المذكور ص ١٩١ .

أما غوغائية أغلب الأصوات في الشعب فلا معنى لها ؛ لأن العبرة كما قلت بغلبة أصوات ممثليهم ٠

وثانيهما : أن يكون الموضوع مما يعود لرأي عامة الناس ، وليس فيه حكم مخصص في الشرع أو في معارف أهل التخصص كالاختلاف في مكان إقامة منتزه ، فيؤخذ بأغلب أصوات الممثلين لإنهاء النزاع بحرية إرادية ٠

أما لو اقتضى محتم أمني أو خبرة هندسية تحديد الموضع فلا يلتفت لأغلب الأصوات ، بل العبرة بقرار أهل الخبرة ٠

ويلاحظ في النظرية الديموقراطية أمران :

أولهما : القانون الذي يحكم الأمة ويُقَيِّد سلطة الحاكم ٠

وثانيهما : إجراءات ممارسة السلطة ٠

فأما الأمر الأول : فيعني أن مصدر القانون هو الإنسان في شهواته وأهوائه وعقله وخبرته بتنسيق يضمن التوفيق بين شذوذ الفرد واتفاق الجماعة لحماية حرية المنفعة العامة ٠

وهذا المفهوم نتيجة أمرين :

١ - أن النظرية الديموقراطية مبنية على دعوى حتمية الحق الطبيعي (قانون الشهوة) ٠

٢ - أن مفهوم الديموقراطية لغة يعني سلطة الشعب ٠

وهذا المفهوم اللغوي هو المراعى في إقامة أنظمة الحكم الديموقراطي منذ ثورة فرنسا ٠

وقبول الحكم الديموقراطي بمفهوم الأمر الأول (قانون السلطة) : لن يكون محل حوار أو مساومة في شرقنا الإسلامي إلا بتصريح سافر لا مراوغة فيه : أنه لا طاعة للإسلام ، ولا حكم له تلزم طاعته ؛ لأن النصوص الشرعية قطعية

الدلالة والثبوت على أنه لا حكم للإنسان إلا فيما جعله الله لاجتهاده ، وأن الحكم لله شرعاً كما له الحكم كوناً ، وأن من لم يحكم بما أنزل الله كافر ، وأن من الحكم بغير ما أنزل الله اتباع الهوى والشهوة ٠٠ أي ما يسمى بالحق الطبيعي ٠

فهذه القضية من قطعيات الشرع وضروراته لا تحتمل إلا وجهاً واحداً ، وهو الوجه القطعي النصي غير القابل للاجتهاد والتأويل ٠

ومخالفة هذا الوجه كفر بالشرع ، وليست اجتهاداً فيه ؛ ولهذا فشارب الخمر ومجترم الكبائر والخبائث مسلم فاسق ، ولا يخلد في النار ، ودخوله في النار بدءاً تحت مشيئة الله ، وقد يغفر الله ما سوى الشرك إذا رجحت الحسنات ٠

فإن استحل الخمر شاربها أصبح فعله كفراً لا مجرد فسق ؛ لأن عصيان الشرع مع الإيمان به غير الكفر به جحداً وتكذيباً ٠

والذي خسر بتطبيق الحكم الديموقراطي أو بتطبيق بعض صوره المشوَّهة - بمفهوم قانون السلطة - هم النصارى وأغبياء المسلمين ومأجوروهم ٠

لقد فُصِلَ الدين عن الدولة في القانون ، وفصل الدين عن الدولة في المجتمع ، فصار العجوز المتقاعد الأوربي يستأجر من يؤانسه ويحادثه وقت العزاء إذا فُدح بشريكة حياته العجوز ؛ لأن أواصر المرحمة بين ذوي القربى والجيران وأهل القرية وأبناء الملة انفصمت بإبعاد الدين عن الحياة ٠

ولا يُحصى - في لندن وغيرها - العجائز الذين يموتون برداً أو جوعاً ، أو كآبة ووحدة ، فيظلون ميتين أياماً لا يعلم بهم حتى يتنبه القس إلى شغور أماكنهم في الكنيسة ٠٠ وأولادهم وأحفادهم وذوو القربى أحياء أشداء !! ٠

وسحرنا الروائي الإنجليزي العالمي تشارلس ديكنز برواياته كرواية

(دافيدكوبرفيلد) بأخلاق أريحية في المجتمع الإنجليزي من كرم ومواساة وبشاشة وأواصر في القربى والملة ٠٠ والمعروف أن ديكنز من رواد الواقعية في الرواية ؛ لأن مادتهم واقع عصرهم وبلدانهم ٠

ولكن الإنجليز المعاصرين - على الرغم من قرب العهد بديكنز - لا يكادون يصدقون بأريحية الواقع في روايات ديكنز ، وليس ذلك شكاً في تاريخ حاضر مدوَّن بين أيديهم ، وإنما واقعهم المعاصر الذي يعيشونه لا يكاد يُتيح لهم فرصة التصديق ؛ لأنه واقع مادي جلف لا تحكمه مرحمة الدين ٠

ولكنهم - كغيرهم من دول النصارى - وقعوا فريسة عدوهم الأقل الذي يعمل في الظلام ؛ ليقيم محاسن الدولة اليهودية العالمية المرتقبة على أنقاض تخريبهم للقيم والأديان والعلاقات ٠

ودين النصارى منسوخ وغير معصوم ، فمنه أحكام من صنع البشر ممعنة في الخرافة مصادمة للعلم المادي المحسوس ، ومنه نصوص قابلة للتأويل ٠٠ فكل هذا سَهَّل عليهم مقولة : الدين لله والوطن للجميع ٠

ورشَّح ذلك فساد المجتمع ، وظلم أقطابه ، وحذق الآفقين في استغلال المناخ بمجمَّعاتهم السرية التي أصبحت ضغوطاً خفية تحكم العالم حتى هذا اليوم ٠

أما مجتمع المسلمين فيحتاج إلى توعية وإصلاح بلا ريب ، لكن دينهم لا يقبل المساومة ؛ لأن الله جل جلاله خالق المجتمع أنزل دينه راشداً معصوماً مهيمناً شاملاً بشمول علم علام الغيوب الذي يعلم ما سيكون ٠

إن الإسلام لا يَحُدُّ سعي المسلم في استثمار مواهبه وحسه وتفكيره في عمارة الدنيا طباً وزراعة وصناعة واستكشافاً ٠

وإنما يُوَظِّف الإسلام ثمار علم الإنسان وسعيه وإنتاجه للسلوك السوي ؛

لأن التشريع من حق الله ٠

لم يُحَرِّم الإسلام صنع السلاح ؛ لأنه من إعداد القوة ، ولكنه حرم بيعه في الفتنة توظيفاً للسلوك ؛ لأن الإسلام يدعو للإنتاج ويجعل لحرية المواهب العمل ٠٠ أما العمل ذاته فيوظفه شرع الله الذي لا قول معه لأحدإلا باجتهاد منحه للبشر خالقهم ٠٠ والاجتهاد الذي منحه الله للبشر على قسمين :

اجتهاد في معرفة الوقائع – التي هي موضوع الحكم – فهذا جعله الله لأهل الخبرة بفنهم ما وجدت أهلية الصدق والعدالة ، فالطبيب مؤتمن في وقائع فنه ، والمهندس مؤتمن في وقائع فنه ؛ ذلك أن الله حث على استثمار الأرض والمواهب ، فرتب على ذلك حجية اجتهاد أهل الفن في فنهم إعمالاً لما امتن الله به عليهم من عقل وحس ٠

والاجتهاد الآخر اجتهاد في معرفة مراد الله من الأحكام التي تنطبق على الوقائع ، وهذا لم يجعله الله لغير أهل العلم بشريعته ؛ لأنه لن يترشح لالتماس مراد الله إلا من تمرس في معرفة خطابه الشرعي بالقرآن والسنة المطهرة ٠

ولا مجال للجمع بين دعوى الإسلام ، وبين دعوى الحكم الديموقراطي بمفهوم قانون السلطة (فصل الدين عن الدولة) ، وإنما هما دعويان متنافيتان لا تجتمعان :

فإما الكفر ، وهو فصل الدين عن الدولة والحياة ٠٠ وإما الإسلام ، وهو أن يكون قانون السلطة من شرع الله ، فَنُعمل مواهبنا فيما أباحه لنا ، ونتقي ما حرمه أو كرهه لنا ، ونسابق إلي ما أوجبه علينا أو استحبه لنا ؛ ذلك أن حق الله في التشريع ثابت بالقواطع والضرورات ذات الوجه المتعين الذي لا يقبل تأويلاً أو اجتهاداً لارتفاع الاحتمال في دلالته وفي ثبوته ، وأن المسلم لا يحق

له الدخول في عقد اجتماعي يلغي شرع الله ٠

فإن قدر على الهجرة ففرض عليه أن يهاجر ، وإن قدر على التغيير ففرض عليه أن يغير ، فإن لم يقدر علي هذا وذاك فله أن يستسلم ما ظل غير مصدود عن دينه في خاصة نفسه وأهله وولده ، وعليه أن يحترم من القوانين المنظمة للمجتمع ما يضمن حياته في المجتمع نفسه مادام غير مصدود عن دينه في خاصة نفسه ، وما زاد عن ذلك من أحكام الإكراه والإلجاء فليس هذا مجال سرده ، وهو موكول لاجتهاد العلماء حينما تمس الضرورة للفتوى ٠

والإسلام يرحب بكل أسلوب - وإن كان جديد الوقوع - يحقق دستور الأمة بحرية وعدالة ومساواة ووسائل بشرية مساعدة تعين على دقة التنظيم وسرعة الإنجاز ؛ ذلك أن أحكام الشرع من الثوابت ، وهي تُكتشف بالنص غير المحتمل ، أو القضية غيرا لمحتملة (يسميها أهل الظاهر دليلاً) ، وبصواب الاجتهاد ، وبإصابة المجتهد وإن كان الاجتهاد غير صواب ٠

وتظل الأحكام ثوابت وإن تغيرت الفتوى بتغير الزمان - كما بين ذلك ابن قيم الجوزية في كتابه النفيس إعلام الموقعين - ؛ لأن التغيُّر تغيُّرٌ في الوقائع ، وإحلال لثوابت الأحكام محلها من الوقائع التي تناسبها لتغير المكان والزمان ٠

وأحكام الشرع التي جعلها الله لنا باجتهادنا من الثوابت أيضاً وإن تغير اجتهاد العلماء في زمن دون زمن ، أو بلد دون بلد ٠

ووجه الثبات أن اجتهادنا محكوم باختيار الله لنا في اتخاذ وسيلة الاجتهاد ، وهو أن يكون مصدر اجتهادنا شرع الله قرآناً وسنة ؛ لأنه أذن لنا بالاجتهاد لنتحرى مراد الله دون مراد غيره ، وأن يكون مجتهدونا من ذوي

الأهلية والدراية بالشرع ؛ لأنه لا يُرَشَّح لمعرفة مراد الله في جزئية من الجزئيات إلا من تمرس في فهم خطابه .

وأن يكون تأصيلنا - في استقاء الحكم من مصدره - نزيهاً صادقاً بريئاً من الهوى والعصبية ، فالإخلاص لله في الاجتهاد شرط ضروري ، لأن الاجتهاد عبادة .

فإذا تحقق الاجتهاد بصحة المصدر ، وأهلية المجتهد ، ونزاهته : أصبح الحكم من الثوابت في حق المجتهدين ومن تلزمهم الطاعة من غير ذوي الاختصاص .. أما صواب الاجتهاد ذاته فيُعَرِّفُهم به من عرَّف لهم الجنة ، فيمنحهم أجرين ، أو أجراً ومعذرة .

فإذا ستقر اجتهاد المسلمين ثم استجدت معرفة حسية قطعية تعارضه : بات من اليقين أن الخطأ في أفهام مجتهدينا لا في شرع ربنا ، ومن ثم يعاود الاجتهاد أهلوه .

فبربكم هل رأيتم أكرم وأرحم وأسمح من هذا الدين المطهر ؟ !.

أما أسلوب تطبيق الحكم الشرعي - بعد معرفته نصاً أو اجتهاداً - : فمنه ما هو من الثوابت ، وأكثر ما يكون ذلك في العبادات ، فلا نعبد الله بأي كيفية لم تشرع لنا ، وهذا هو المحك في معرفة السنة والبدعة .

ومنه ما ليس من الثوابت ، وأكثر ما يكون ذلك في غير العبادات .

وأوسع أبواب الفقه قبولاً للأساليب المتطورة الأحكام السلطانية (ممارسة الحكم) .

وأكثر المصالح المرسلة التي قررها الأصوليون استنباطاً ترتبط بهذا الباب .

وإذا استقرأت واقع السياسة في الشعوب المتقدمة مادياً وجدته يدور على

سلطتين :

أولاهما : سلطة النظرية الأيدلوجية (دكتاتورية الحزب العلماني) .

وأخراهما : سلطة الديموقراطية (دكتاتورية الشهوات والمنافع التحليلية) .

وبهذا فمن المؤكد أنه لا حلم مطلقاً بدولة ليست سلطتها منبثقة من دين أو مذهب فكري أو تحليلي .. أي أنه قبل الاتفاق على نظرية سياسية لابد مسبقاً من الاتفاق على دين أو مذهب أو منفعة يكون من عناصر أي منهن بنود العقد بين الحاكم والمحكوم .

والمدخل لكل نظرية بلا ريب منطق الحقيقة ، وهو العقل وتفكيره ، والديموقراطية بنيت على عفن الفيلسوف اليهودي سبينوزا في كتابه المترجم إلى العربية « رسالة في اللاهوت والسياسة » ، ولقد حلل أساس الحرية الذي يرد في تفلسفه مقتضىً للحق الطبيعي ؛ لأن الطبيعة في ذاتها تتمتع بحق مطلق على كل من يدخل تحت سيطرتها .

ولكنه تناقض ففسر الحق المطلق بمطلق حق ، إذ قال : (أي أن حق الطبيعة يمتد بقدر امتداد قدرتها) .

ونتيجة لذلك فهم القانون الأعظم للطبيعة : بأن كل شيىء يحاول بقدر استطاعته أن يبقى على وضعه وبالنظر إلى نفسه فقط دون اعتبار لأي شيىء آخر .. أي أن يكون وجود الشيىء وسلوكه وفق ما يتحتم عليه طبيعياً أن يفعل .

ويضرب نموذجاً لذلك بالأسماك يتحتم عليها - بطبيعتها - : أن يأكل الكبير منها الصغير .

ولا فارق بين الناس والموجودات الطبيعية الأخرى ، أو بين ذوي العقول السليمة ومن هم خلو منها .

وكما أن للحكيم أن يحيا طبقاً لقوانين العقل : فإن للجاهل ولمن هو خلو من أية صفة خلقية حقاً مطلقاً (يريد مطلق حق) في أن يفعل كل ما تدفعه الشهوة نحوه .. أي أن يعيش طبقاً لقوانين الشهوة .

وراوغ هذا اليهودي النذل أغبياء النصارى إذ استدل بعقيدة بولس التي لا تعترف بوجود الخطيئة قبل الشريعة ، وسوَّغ مطلق الحق الطبيعي بأن قدرة الطبيعة هي قدرة الله نفسه .. أي أن قدرة الله مجموع قدرات الموجودات الطبيعية ؛ فحق الموجود إذن هو ما يقع تحت قدرته .

والحق الطبيعي لكل إنسان يتحدد حسب الرغبة والقدرة لا حسب العقل السليم !!.. لأنه ليس في طبيعة جميع الناس أن تتفق أفعالهم مع قوانين العقل ، ولأن جميع الناس يولدون في حالة من الجهل المطبق ، ولأنهم لا يصلون إلى معرفة النموذج الصحيح للحياة إلا بعد انقضاء الجزء الأكبر من حياتهم ، ولأنهم إذا بلغوا مستوى عالياً من التربية يضطرون إلى أن يبقوا بقدر استطاعتهم على حالتهم الطبيعية ، وهي الخضوع لدافع الشهوة وحده ؛ لأن الطبيعة لم تعطهم سواه ، ولأنها حرمتهم من القدرة الفعلية على الحياة وفق العقل السليم !!.

ونتيجة لذلك قال سبينوزا : « كل ما يراه الفرد الخاضع لملكة الطبيعة وحدها نافعاً له – سواء أكان في ذلك مدفوعاً بالعقل السليم ، أم بقوة انفعالاته – يحق له أن يشتهيه طبقاً لحق طبيعي مطلق ، وأن يستولي عليه بأية وسيلة : سواء بالقوة ، أم بالمخادعة ، أم بالصلوات ، أم بأية وسيلة أخرى أيسر من غيرها .. وبالتالي يحق له إذن أن يعد من يمنعه من تحقيق غرضه عدواً له » اهـ.

إذن لا يحظر الحق الطبيعي سوى أمرين هما :

* ما لا يرغبه الإنسان .
* ومالا يستطيعه .

والحق الطبيعي لا يمنع من النزوع إلى الكراهية والغضب والخداع وكل ما تدفع إليه الشهوة .

وحتمية الحق الطبيعي للسلوك الإنساني تبدو في ظاهرتين :

أولاهما : أن هدف العقل الإنساني - الذي هو جزء من الطبيعة - المنفعة الحقيقية والمحافظة على البشر .

وأخراهما :أن الطبيعة لا تحقق هدف العقل ، لأن الإنسان نفسه جزء من الطبيعة .. إذن ضرورة النظام الطبيعي العام تحدد سلوك الإنسان .

وللانسجام مع قانون الطبيعة : على الناس أن يتوحدوا في نظام واحد لا يجعل شهواتهم متضاربة ؛ لأن لكل فرد شهوته .. وذلك بتنظيم العقد الاجتماعي على هذا النحو :

أ - أن يكبح الفرد شهوته بقدر يحول دون الإضرار بالآخرين .

ب - أن يعامل غيره بمثل ما يحب أن يعامل به .

ويضيف مترجم الكتاب الدكتور حسن حنفي في تعليقاته الإفادة بأن الحق الطبيعي ليس قوة سلطة شرعية يمتلكها الإنسان ؛ لأنه لا يوجد في الطبيعة قوة شرعية أو لا شرعية ، فالحق الطبيعي هو حق السلوك طبقاً لقوانين الطبيعة العامة ، وطبقا لطبيعة من يقوم بالفعل .. أي أن حقه في المحافظة على وجوده ، وهو الحق الذي يتمتع به كل فرد .

ويحمل طرف الرداء مع سبينوزا إبليس السياسة الأكبر « هوبز » ، ولم يترجم شيء من أعمال « توماس هوبز » فيما أعلم ، ومع هذا استوعب العقل العربي الحديث فلسفته بيسر أكثر ممن ترجمت أعمالهم ؛ لأن فكره الفلسفي

أخذ سياقاً عريضاً في كتب تاريخ الفكر ، وتاريخ الحضارة ، ومعجمات الاصطلاح ، والمباحث المفردة كقضايا الإيمان والإلحاد ، وقضايا السياسة والحق الطبيعي .

ويسمونه في بلاده إقليدس السياسة ، كما هو بوق الكفر والإلحاد .

قضى واحداً وتسعين عاماً نصفها في القراءة والدراسة والتأمل والرحلات إلي بلاد أوربا والاتصال بكبار رجال الفكر ، والنصف الثاني في التأليف .

وفصل الدين عن الدولة في أوربا منذ ثورة فرنسا سبقه وصاحبه وسايره تخطيط فكري لمفهوم السياسة .. بحيث أصبحت فرعاً فلسفياً بعد أن كانت باباً من أبواب الفقه ، واشتق من فلسفتها فلسفة القانون .

وقامت فلسفتها على تجريدات مضلِّلة - بصيغة اسم الفاعل - من علمي الاجتماع والنفس ، وكان عمداء هذه الفلسفة لوثر ، وسبينوزا ، وجون لوك ، وروسو ، وهوبز .

إنك تجد تبايناً في الاصطلاح ، فالسلطة عند لوثر ليست من عند الله .. ويقول هوبز : ليست من طاعته .. ويقول سبينوزا ولوك : بل من قوانين الطبيعة .. ويقول روسو : بل موافقة السكان .

ويلتقي كل هذا الفكر الصهيوني على أنه لا حقّ لله في تدبير خلق الله بشرع الله !!.

ويمعن في التضليل والمكيدة عند وضع أسس القانون ، فتمتزج مقدمات باطلة محالة بمقدمات صحيحة يقينية افترض السفلة أنها لا توجد في شرائع الله ، وأن التاريخ حرم منها .

فمن المبادىء الأسس أن « سلطة الدولة فوق كل عنف ، وأنها لا تمارس إلا بمقتضى القوانين » ، فهذا حقّ لو اتُفقَ - بالبناء للمجهول - على القانون

الذي يحكم السلطة ٠٠ أي لو قال : إن القانون هو دين الله الذي ظل مهيمناً على سلطة كل حكومة مسلمة ٠

ومن المبادىء عند روسو : أن لا يكون أحد يشري غيره ، ولا فقير يبيع نفسه ٠

ولا معنى لهذا الاشتراط مادامت السلطة للقانون ٠

فإن كان القانون من وضع البشر فلابد من البيع والشراء الذي فرّ منه روسو ، ولابد من التخبط في محالات الحرية ٠

وإن كان القانون هو دين الله فالخلق عبيد الله كوناً ؛ لأنه خالقهم ومربيهم ومخضعهم لناموسه من حتمية الوجود والأجل والموت ووضعية أجزاء الحياة ٠

قال أبو عبدالرحمن : وفي أجوبتي على الهاتف التي كانت تنشر بجريدة الجزيرة بعنوان مهاتفات للفكر والوجدان قال أحد المهاتفين : ألا ترى أن في نقدك للديموقراطية بذلك العموم إسقاطاً لعناصر ديموقراطية مشروعة كعنصر الحزب ، فإن التاريخ الإسلامي مليىء بالمذاهب الفقهية والفكرية ، ولم تخرج بذلك عن الملة ، والمذاهب أحزاب كما يعلمه فضيلتكم ؟ ! ٠

وأجبت بأن في التساؤل غفلة لثلاثة أمور :

أولها : أن نشوء الأحزاب في الأمة بقدر كوني غير إنشائه بحرية بشرية ٠

وثانيها : أن التحزب للإسلام واجب في جماعة غير إسلامية ، ولا يجوز التحزبات داخل الجماعة المسلمة ؛ لأن القرآن الكريم ينهى عن التفرق ٠

وثالثها : أن المذاهب الفقهية والفكرية غير المذاهب السياسية بالمعنى الاصطلاحي ٠

وقد ورد ذكر الحزب والأحزاب في القرآن الكريم ، وبين الله أحكام كل

حزب .. ذلك أن القرآن الكريم في أكثر من موضع قسم الناس إلى حزب لله غالبين مفلحين ، وإلى حزب للشيطان خاسرين من أصحاب السعير .

قال تعالى : ﴿ .. فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ [سورة المائدة /٥٦] .

وقال تعالى :﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [سورة المجادلة / ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ .. ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ [سورة المجادلة /١٩] .

وقال تعالى عن الشيطان : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ [سورة فاطر/ ٦] .

فالحكم في الحزب بالتقييد ، فحزب الله ممدوح وحزب الشيطان مذموم .

وورد ذكر الأحزاب في القرآن الكريم ويراد بهم قوم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام من سائر الأمم .. قال الله تعالى : ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب . جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد . وثمودُ وقومُ لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ﴾ [سورة ص / ٩ - ١٣] .

والمراد بكلمة الأحزاب الأولى كفار قريش ، والتقدير الإعرابي : هم جند أيُّ جند هنالك .. صفته أنه مهزوم ، وأنه من الأحزاب .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم .. ﴾ [سورة غافر / ٥] .

وقال تعالى في لقصص عما قاله مؤمن آل فرعون : ﴿ وقال الذي آمن ياقوم إني أخاف عليكم مثلَ يومِ الأحزاب . مثل دأبِ قوم نوح وعادٍ

وثمودَ والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ﴾ [سورة غافر / ٣٠ - ٣١] .

وقال تعالى عن قوم عيسى : ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ [سورة الزخرف / ٦٣ - ٦٥] .

وقال تعالى عن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ [سورة مريم / ٣٦ - ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ .. ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده .. ﴾ [سورة هود / ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه .. ﴾ [سورة الرعد / ٣٦] .

قيل : المراد المتحزبون على رسول الله ﷺ من أهل مكة وغيرهم.. وقيل : المتحزبون من أهل الأديان كلها .

وأما كلمة الأحزاب في سورة الأحزاب فالمراد بها كفار العرب الذين حاصروا المدينة في حادثة الخندق .

وورد الحزب بالتثنية في قوله تعالى :﴿ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ [سورة الكهف /١٢] .

المراد بالحزبين الكفار والمؤمنون .

وورد لفظ الحزب بالإفراد على سبيل الذم لأنه تحزب خارج دائرة الحق

.. قال تعالى : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴾ [سورة المؤمنون /٥٢ - ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ .. ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [سورة الروم / ٣١ - ٣٢] .

قال المفسرون : جعلوا دينهم مع اتحاده قطعاً متفرقة مختلفة .

وفسر بعضهم الفرح بالإعجاب ، والواقع أن الفرح نتيجة الإعجاب .

والإسلامُ يُتَحَزَّب له من قبل المسلمين في مجتمعات غير إسلامية .

فإذا كان المجتمع إسلامياً ، وحكومته إسلامية ، ودستوره إسلامي : فلا يجوز التحزب ؛ لأن ذلك التحزب اختلاف بين المسلمين أنفسهم ، والله يحذِّر أشد الحذر من الاختلاف .

والآن ألقي مفهوماً عن معنى الحزب ، ففي اللغة قال الإمام ابن فارس : الحاء والزاء والباء أصل واحد ، وهو تجمع الشيء .

وقيده الراغب بجماعة فيها غلظ .

وقال الأزهري نقلاً عن الليث : « وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وإن لم يلق بعضهم بعضاً بمنزلة عاد وثمود وفرعون » .

قال أبو عبدالرحمن : بل لأن السبل تفرقت بهم عن سبيله ، فكانوا جماعات يؤلف بينها معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والتحزب ضدهم ، فكانوا أحزاباً .

والحزب في الاصطلاح السياسي يعني مجموعة من المواطنين يؤمنون بأهداف سياسية وأيديولوجية مشتركة ، وينظمون أنفسهم بهدف الوصول إلى الحكم .

وَعُرِّفَ الحزب بأنه جماعة منظمة ذات عضوية مفتوحة للجميع تهتمُّ بالشؤون السياسية .

وعرف بأنه جمهرة من المواطنين تجمعهم مبادىء مشتركة وأهداف واحدة يعملون على تحقيقها عن طريق الاستيلاء على الحكم بالأساليب الديموقراطية عبر الانتخابات النيابية حيناً ، وبالأساليب غير الديموقراطية كالثورة أو الانقلابات العسكرية حينا .

وعرف أيضا بأنه منظمة سياسية من الناخبين ورجال السياسة يعملون مجتمعين وفي خطة معينة بغية الوصول إلى الحكم وتوجيه سياسة الدولة وإدارتها .

ويذهب محمدعبدالحكم دياب إلى تعريف الحزب السياسي بالمفهوم العام ، فيعرفه بأنه عبارة عن جماعة من الناس تعتنق مذهباً سياسياً واحداً وتلتقي على أهداف ومصالح مشتركة .

ويرى أنه في العصر الحديث يعبر عن أطر جديدة لظاهرة الاختلاف والانقسام العقائدي والسياسي .

وقال مؤلفا الحرية وتعدد الأحزاب : « وقد تعددت تعريفات الحزب السياسي ، فركز الفكر الليبرالى على الجانب العقائدي منذ أن لاحظ الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم في مقال له عام ١٧٦٠ أن البرنامج السياسي للحزب يلعب دوراً جوهريا في مرحلة تأسيسه ؛ إذ يعمل على تحقيق التآلف بين أفراد متفرقين حتى تبرز الاعتبارات التنظيمية بعد ذلك .

كما عرف الفرنسى بنيامين كونستانت الحزب في ١٨١٦م بأنه جماعة من الناس تعتنق مذهباً سياسياً واحداً .

ومن التعريفات الواسعة الاستعمال في هذا الإطار تعريف أدموندبيرك

للحزب بأنه اتحاد بين مجموعة من الأفراد بغرض العمل معاً لتحقيق الصالح القومي وفقا لمبادىء محددة توافقوا عليها جميعاً .

وفي المقابل أبرز الفكر الاشتراكي والماركسي بوجه خاص مفهوم الحزب الطبقي حيث أصبح التركيز على التكوين الاجتماعى للحزب والارتباطات الاقتصادية لأعضائه والمراتب التي يحتلونها في السلم الاجتماعى .

ومن التعريفات التي جمعت كلا الاتجاهين تعريف موريس ديفرجيه في مؤلفه عن الأحزاب السياسية ، فقد اعتبر أن الحزب هو جماعة من الناس منظمة في بناء معين وملتزمة بأفكار وعقيدة وبرنامج سياسي محدد ، وتنتمي بشكل عام إلى طبقة بذاتها : إما انتماء اقتصادياً اجتماعياً مباشراً ، وإما انتماء فكرياً غير مباشر .

ويرى بعضهم أنه لا يمكن إعطاء تعريف واحد شامل للحزب مثل الفقيه القانونى بيردو الذي يرى أنه يجب أن نعرِّف الحزب في زمان ومكان معين .. بمعنى أن تعريف الحزب أمر يختلف باختلاف المكان والزمان ، ومع ذلك يمكن القول بأن الدراسات المتعلقة بمفهوم الحزب تشير عادة إلى ثلاثة مقومات أساسية :

١ - وجود تنظيم له صفة العمومية والدوام .. بمعنى أنه يوجد على المستوى القومي والمحلي مع توافر شبكة للاتصالات بين مختلف مستويات التنظيم .

٢ - رغبة عناصر الحزب وقياداته في الوصول إلى السلطة السياسية والحكم ، وليس مجرد التأثير على صنع القرار السياسي .

٣ - سعي التنظيم إلى الحصول على التأييد الشعبي ، وإقناع المواطنين بخطه السياسي بناء على برامج وأولويات محددة .

ويلاحظ أن العنصر الخاسم في تعريف الحزب هو أنه يسعى للوصول إلى الحكم والاستيلاء على السلطة السياسية لتنفيذ برنامجه ، وليس مجرد التأثير أو الضغط ، وهذا هو الفارق الأساسي بين الحزب السياسي وجماعة المصالح .

فالخاصية المميزة للحزب دون غيره من الجماعات هي العمل على تولي زمام السلطة من أجل تنفيذ مبادىء سياسية معينة .

وبهذا المعنى يكون الحزب أداة للوصول إلى الحكم أو الاحتفاظ به بناء على برنامج سياسي .

ولكي يتمكن من ذلك فلابد له من شكل من أشكال التنظيم على اعتبار أن التنظيم هو وسيلة لتحقيق أهداف معينة في داخل النظام السياسي .

وبوجه عام يعتبر وجود التنظيمات الحزبية من خصائص النظم السياسية الحديثة سواء اتخذت شكل الحزب الواحد أو تعدد الأحزاب .

وتعد قضية العلاقة بين شكل النظام الحزبي وبين الديموقراطية من القضايا التي تحتل مكانة رئيسية في معارك هذا العصر السياسية والعقائدية .

وعن مسألة تعدد الأحزاب قيل : « وتعتبر قلة عدد الأحزاب دليلاً على الاستقرار الفكري والاجتماعي ، واتفاق الجمهور على الخطوط الرئيسة للسياسة العامة .. بينما يعبر تعددها عن القلق والاختلاف حول تلك الخطوط .

كما يؤدي هذا التعدد عادة إلى قيام الحكومات الائتلافية لتعذر حصول حزب واحد على أغلبية أصوات الناخبين .. وهي عادة حكومات ضعيفة عديمة الاستقرار » .

قال أبو عبدالرحمن : وحاضر الدكتور محمد سليم العوا عن التعددية السياسية من منظور إسلامي بزعمه في ندوة قضايا المستقبل الإسلامي

بالجزائر في ٩ - ١٢/١٠/١٤١٠هـ ، فقرر في تمهيده أن التعددية تعني التسليم بالاختلاف واقعاً ، والتسليم به شريعة .. بمعنى أنه لا يملك أحد حرمان المختلفين من الاختلاف !! .

قال : والتعددية بمعنى الاختلاف في أنواع الخلق ، وبين أفراد كل نوع من حقائق الإبداع الرباني المسلمة ، وليقرأ من شاء قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [سورة الأنعام / ٩٨ - ٩٩] .

أو قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ [سورة فاطر / ٢٧ - ٢٨ .

والتعددية في نوع الإنسان وانتمائه ومستوى أدائه لواجباته وممارسته أجلى وأوضح ، وليقرأ من أراد قوله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ [سورة الروم / ٢٢] .

أو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [سورة الحجرات /١٣] .

وفي هذه الآية يعبر القرآن بلفظي أكرم وأتقى وهما يدلان لغة على وجود

التقى والكرم .. أي يدلان على أن الاختلاف حقيقة واقعية ، وأن التعدد في مراتب التقدير الرباني لا يعني قبول أهل مرتبة واحدة منها دون أهل سائر المراتب .. أعني مراتب التقى والكرامة المترتبة على صدق الإيمان ووضوح اليقين » .

قال أبو عبدالرحمن : يلاحظ من عناصر تعريف الحزب السياسي التنظيم للوصول إلى الحكم .

والإسلام يمنع من هذا العنصر لأن أهلية الحاكم تحملاً أو أداء معالجة بأفق أرحب في النصوص ، وليس مذهب أولى بالأهلية دون مذهب .

وليس في الإسلام إنهاء لمدة الحكم بتحديد زمني ، وإنما يُنْتَقل إلى الأمثل بموانع معلومة من ردة أو عجز .

ومن عناصر التعريف عند جمهور ذوي التقنين السياسي أنه تحزب من أجل العمل السياسي .

وليس في الإسلام إتاحة الفرصة لتعدد الأهواء السياسية ، بل العمل السياسيإما امتثالاً لنص شرعي ، وإما إجراءً لمصالح مرسلة يشترك فيها اجتهاد ذوي الحل والعقد .

وأما الأمور التي تعود إلى خبرة البشر كالنواحي الهندسية والفنية فينفذه الأجهزه ذات التخصص ، ويستفتى فيها أهل الخبرة .

وأما توظيف مجال الخبرات والتخصصات فيستفتى فيه سواد الأمة دون حاجة إلى تحزبات عقائدية أو سياسية .

وأبحاث الدكتور العواء مشحونة بمغالطات أهمها أنه يخلط بين قضاء الله الكوني الذي لا مرد له وبين فعل البشر الذي لا يكون إلا بإذن شرعي رباني .

واختلاف وسائل الأداء في الصنع الرباني كاختلاف الألسن لايسوِّغ

اختلاف السلوك البشري في الغايات المحددة شرعاً .

قال أبو عبدالرحمن : واسترسال الدكتور المتسامح أنتج نتيجة باطلة ، وهي أن الكرم والتقى موجودان بإطلاق رغم اختلاف الناس شعوباً وقبائل ، وليس هذا بصحيح ، وإنما المقدمات بمنطوق الآية ومفهومها أن الناس مختلفون في الأنساب كما أنهم مختلفون في التقوى ، فالنتيجة أن أكرمهم أتقاهم ، فالميزان بالتقوى لا بالنسب ، وليس كل فرد من البشر فيه تقوى ، بل فيهم اللئيم الكافر .

وقيام الديموقراطية على الحق الطبيعي وقانونه التشريعي إلغاء ضمني لتربية المصلحين ، والأخذ بحجز الأديان والأخلاق والعقول .

ومن فلاسفة الحرية غير المشروعة الفيلسوف الفرنسي الملحد سارتر ، فقد مضغ لسانه بخبال فكري ليعبث بعقول الأبرياء ، فكابر في حقيقة التربية الربانية ، فزعم النذل في كتابه الوجود والعدم : أن وجود الإنسان سابق لماهيته ، وأن الإنسان هو الذي يخلق ماهية الإنسان .

وهذا الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل يعتبر كل منهج تربوي في العالم مؤامرة كبرى على حرية الأفراد ، فمنذ يولد الطفل يغمسه ذووه في ثقافة المجتمع .

وليس المقياس صواب السلوك ، وإنما المقياس عدم الشذوذ والتجانس مع أفراد المجتمع .

ورسل لا يثبت هاهنا واقعاً فحسب لمجرد الخبر ، وإنما يورد ذلك في ميدان النقد والتأسيس لفلسفة التربية .

وهو ينحي بذلك على الأديان المحرفة المبدلة التي يتكوَّن منها سلوك المجتمع .

قال أبو عبدالرحمن : من البدهي أن من اعتقد صحة شيئ فسيمليه ويلزم به أحب الناس إليه ممن هو تحت رعايته .

وميزة أمتنا الإسلامية أن التربية المعتبرة في مجتمعها ما كان عن ذوي أهلية ، وإنما يحضن الطفل الصالح ذو الأهلية من أوليائه .

وأن إمام المسجد ومجتمع المسجد والقاضي والمفتي والمعلم يتعهدون تربية المجتمع .

وأن رقابة المجتمع المسلم ذات قيمة فكرية ومضمون ؛ لأن علن المسلمين معصوم لا يتواطؤون على المنكر .. وليس كذلك علن غير أهل الإسلام فإن الخطايا المحرمة في دينهم من سفاح وقمار وخمر توجد علناً في مجتمعهم .

والمجتمع المسلم يأبى للمسلم تربية أو حضانة أو خلطة أو ولاية غير إسلامية .

ثم يُراهن علماء المسلمين وفقهاؤهم ومفكروهم الذين يوجهون مسيرة التربية والتجانس الاجتماعي على صواب دينهم وغلبته وفلج برهانه أمام كل حائر ومستشكل ومعترض .

وإذن فهم ضامنون صواب السلوك وسلامة التجانس كلما كان دينهم هادياً للتربية ؛ لأن برهانه غالب غيرهم بمعقوليته وحكمته وعدله وكماله .

وروسو تتظاهر أعماله بالعطف على البؤساء والمجرمين ، وهو من أساطين النظرية السياسية ، فلا عجب أن يكون من أهم وظائف المحاماة العطف على المجرم ومحاولة تبرئته باختلاق فقدان الأهلية .

وأن يكون من مبادئ النظرية السياسية التي اشتُقَّ منها بهرج حقوق الإنسان إلغاء كل عقوبة تمس الجلد أو العضو أو الدم إلا ما هدد أمن نوع السلطة السياسية !! .

ومن مبادئ النظرية السياسية العامة أن قوة الاشتراع تحفظ المساواة !! ٠

فهذه فلسفة ألفاظ لا فلسفة معاني ٠

فكلمة « قوة » اسم علاقة لا تعني شيئاً إلا بالمقارنة بين شيئين أحدهما غير معقول ٠

و« الاشتراع » اسم حدث يقتضي الإمعان في إبعاد شرع الله القائم ٠

و« المساواة » اسم علاقة اتُّخِذَ شعاراً ، ولا معنى للمساواة في القانون إلا بعد وجود التساوي في الواقع كاتحاد العمل أو المواهب والكفاآت ٠

فتساوي الطبيب والغفير (الحارس) في العطاء مساواة من فعل البشر ٠

وتفضيل الطبيب على الجرسون (الخادم) تفرقة بفعل البشر ٠

إلا أن لفظ المساواة إذا أريد به أن يكون ذا مضمون فكري : يحكم على المساواة في موضع بالعدل ، وفي موضع بالظلم ، إذن لا مضمون فكرياً للمساواة إلا بمفهوم العدل ومقتضاه ٠

ومن المبادئ مراعاة العلاقات التي تنشأ من الوضع المحلي ، ولا معقول لهذه المراعاة إلا باشتراط الوحدة المركزية سياسة ونظاماً ودستوراً ٠

وليس هذا المبدأ الفطري الضروري من بركات الفلسفة السياسية الصهيونية المجرمة ، بل هذا من لبّ اللبّ في شرع الله ، ومهمة ولاة الأمر أن يكشفوا عن مراد الله ويطبقوه في مختلف الأوضاع ، وقد عقد ابن قيم الجوزية في كتابه إعلام الموقعين فصلاً نفيساً عن اختلاف الفتوى باختلاف الزمان والمكان ، فالمبادئ ثابتة في منطوق الشرع ، وإنما المراد تطبيق المبدأ المطابق على الواقعة المستجدة ؛ ولهذا اتفق الأصوليون على أن الأحكام محصورة والوقائع غير متناهية ٠

ومن مبادئ النظرية العلمانية التوافق بين العلاقات الطبيعية والقانون ٠٠

وهذا والله حق ، ولكنا لا نضمن إحقاق هذا الحق إلا إذا ضمنا أن القانون تنزيل من خلق الطبيعة وعلاقاتها ؛ لأن الخلق قدرة القادر جل جلاله ، والشرع علمه وعدله وحكمته ٠

أما قانون أبناء الأرملة فقد غصت به البشرية حيث تشكو كل يوم حيف القوانين على فطرتها وحياتها ٠

قال أبو عبدالرحمن : إذا أطلقت السياسة شملت الأحداث التاريخية الحديثة ، فهي تاريخ العالم بشرط الحداثة ٠

وشملت فقه الحداثة الذي يتلمظ به المتحاكون بالتحليل ، وكأنه لا قوى بشرية خفية تطبخ الأحداث ٠

وشملت الظاهرات التي تتميز بها دبلوماسية أي دولة ٠

والغالب في التقسيم الراهن أن المعسكر الشرقي دول أيدلوجية ، إلا أن لها سياسة تحليلية في المطامع الاقتصادية ونحوها ٠

وأن المعسكر الغربي دول تحليلية ، إلا أن لها سياسة أيدلوجية كمبدأ حماية الأقلية النصرانية ٠

وشملت القانون العام للمبادئ التي تحكم السياسة الدولية العامة ، وهذا الفرع هو المصدر الخصيب لفلسفة النظرية السياسية ٠

أما الدبلوماسية فهي المعالجة الذكية التي يقوم بها محترف السياسة في إنجاح موقف ، أو تحقيق ربح يخدم انتماء المحترف ٠

والسياسة في التاريخ العربي عرف على الأحكام السلطانية التي تتناول التنظيم الفقهي لأحوال الراعي والرعية ، وللتعامل مع غير أهل الملة ، وهذا جانب أخلص له الفقهاء ٠٠ كما أنها عرف على المواعظ والآداب والحكم التي تُسدى للراعي حول العدل والتورع والحزم ٠

وقد أخلص لهذا الجانب الوعاظ والأدباء والأخباريون متأثرين بالفلسفة القديمة التي مزجت بين السياسة والأخلاق والفلسفة .

أما السياسة - بمفهومها الحديث ، وعلى أساس أنها نظرية تلتصق بالفلسفة إطاراً وبالأحداث مضموناً - فقد كانت مكيافيلية اللّب والجوهر ، ومكيافلي غامض النشأة والهوية .

أما نظرية السياسة الفلسفية فقد صاغها بعض الفلاسفة مع تتمات أخرى ككتاب أصول فلسفة الحق لهيجل .

ولم أجد في التراث العربي اهتماماً بالنظرية السياسية على أنها فن مستقل بذاته على الرغم من أن العرب قرؤوا تراثاً يونانياً فلسفياً في السياسة ، وإنما اهتموا بالإدارة والنظام .

والسر في ذلك أنه لم يوجد في تاريخ الإسلام ظرف يُشعر بالحاجة إلى تفلسف في النظرية السياسية ، ولأن عناصر النظرية السياسية بدائه مفرقة في تفسير النصوص الشرعية .

والأهم من كل ذلك أن النظريات السياسية الفلسفية الراهنة وجدت بدافع الإعجال بقيام دولة عالمية يهودية واحدة في برنامج العمل الصهيوني الخفي .

وهذا الباعث لم يوجد - ولن يوجد - عند أهل الإسلام ، لأن عملهم في العلن دائماً ، ولأنه ليس في تاريخهم العمل خفاء على تشكيك الخلق في أديانهم ومذاهبهم ، وإنما يواجهون الناس بالحوار والحجة مواجهة علنية واضحة .

وإنما اهتم بالنظرية السياسية المعاصرون من شارحي وجهة النظر الإسلامية من أمثال عبدالقادر عودة ، وسيد قطب ، والمودودي ، ومالك

بن نبي .. وليس غرض هؤلاء أن يحدثوا تفلسفاً جديداً ، وإنما غرضهم الكشف عما هو قائم في دين الله بحجته النيرة الواضحة .

ومن مبادئ النظرية السياسية ممثلة في الديموقراطية الحرية .. والذين أرادوا تعريف الحرية على طريقة الحد الأرسطي غفلوا عن المعادلة التي تجعل الحرية حقاً مرة ، وباطلاً مرة .

يقول برونيسلاف مالينوفسكي أحد علماء الاجتماع : الحرية هي الأحوال الاجتماعية التي تتيح للإنسان أن يحدد غاياته بالفكر ، وأن يحفظها بالفعل ، وأن ينال حصيلة تحقيقها .

وقال لاسكي الفيلسوف الإنجليزي : الحرية هي الأحوال الاجتماعية التي تنعدم فيها القيود التي تقيِّد قدرة الإنسان على تحقيق سعادته .

وقال الفوضويون والوجوديون : الحرية هي انعدام القيود .

وقال نقيضهم في التطرف : الحرية هي الانسجام الكامل مع الدولة .

أما جون استيوارت مل (٣٢) فقد آثر التعريف بالتقسيم لا بالحد ؛ لأن

---

(٣٢) جون ستيوارت مل [١٨٠٦ - ١٨٧٣م] فيلسوف إنجليزي لم يتلق علمه في مدرسة أو جامعة سوى فترة وجيزة التحق فيها بجامعة كمبردج ، وإنما تلقى تعليمه من أبيه الفيلسوف .

وهو باتفاق الأغلبية أكبر مفكر إنجليزي في القرن التاسع عشر .. وأعظم شيئ في حياته أنه استوعب العلم في وقت مبكر جداً ، ولهذا قيل : إن معارفه تكبر سنه بربع قرن .

وجون ستيوارت مل رائد الفلسفة التجريبية الحديثة التي قامت على أنقاض الفلسفة التجريبية القديمة التقليدية ، وكان رائدها دافيد هيوم .

لم يمتهن مل الفلسفة على أنها لذة عقلية ، وإنما احترفها أداة للمنفعة ؛ فقرب لغتها إلى مدارك الناس .

خرج بحكم تجربته على فلسفة العقليين والحدسيين في القول بالأفكار الأولية الخالصة (المعاني الفطرية) وقال : كل معرفة عقلية تكتسب من الخبرة الحسية ، وكان في هذا مقتفياً جون لوك ودافيد هيوم .

=

التقسيم مرحلة تسبق التعريف ، والتقسيم في بدايته لا يعطيك التصور ولكنه يسلمك في النهاية إلى صحة التصور بأوضح ملامحه ، وإذن فالحرية حريتان :

انعدام القيود .. والمطالبة بهذا اللون ضرب من جنون الفلسفة البشرية ، وبالأخص فلسفة الوجوديين ؛ لأنه لا يملك الحرية من القيود إلا من خلق القيد ، والوجود البشري مكبل بالقيود في عقله وغرائزه ورغائبه وبقائه ومحيطه الزماني والمكاني .

والقسم الثاني : الحرية المقيدة ، وهي انعدام بعض القيود .

والحرية المقيدة حريتان : حرية مقيدة توصف بالحق والصواب ، وحرية توصف بالخطأ والظلم .

ومن هذا التقسيم الأخير يجب أن يعلم المنادون بالحريات أن الحرية لا قيمة لها بذاتها ، وإنما قيمتها في مضمونها ، فالتحرر من الخير شر ، والتحرر من الشر خير .

ولست في مجال تحديد الأشياء التي توصف بأنها خير أو شر ، فكل مسألة في الوجود لم يفرغ منها منطق البشر .. وحسبي في هذه العجالة أن أشير إلى أيديولوجية الحرية مع تباين المنطق والفلسفات والمبادئ ، فأرى أن كل شعب – سواء أكان مسلماً ، أم شيوعياً ، أم مسيحياً ، أم وثنياً .. إلخ – يرغب الحرية من الحجز التي تهيض مبادئه ، ويجد هذه الحجز في ثلاث قمم من قمم الطغيان وهي :

= وقال أيضاً : إن الأعمال العقلية مجرد حركات آلية مردها إلى تداعي المعاني وترابطها .

وغلا في نزعته التجريبية فأخضع المعاني العقلية والمثالية لمناهج الدراسات العلمية التجريبية كالأخلاق والآداب والاقتصاد السياسي والقانون ، ورد كل معرفة عقلية (يقال : إنها فطرية أولية) إلى الاستقراء التجريبي .

طغيان الدولة الذي يهيض الحرية السياسية ، وطغيان الثروة الذي يهيض الحرية الاقتصادية ، وطغيان العرف والعادة الذي يهيض الحرية الاجتماعية .

والمصلح الأيديولوجي يضع في برنامج إصلاحه هذه الفروض والتحليلات :

١ - مدى الفساد في هذه الحجز من الناحية المثالية .

٢ - مدى الفساد في هذه الحجز من الناحية الواقعية .

٣ - البديل الصحيح ، ويكون وفق درجات هكذا : البديل الصحيح كذا ، فإن لم يحصل هذا فيليه كذا .. إلخ .

٤ - ثم التضحية لإحلال كل بديل صحيح .

٥ - معادلة رياضية تقبل أنصاف الحلول بين الواقع السيئ وبين البديل الصحيح مع ثمن التضحية .

وهذه قاعدة جيدة في تفكير علماء المسلمين يسمونها درء المفاسد بالمصالح .

ومن أجرى هذه المعادلة ، وقارنها بواقع العالم : فسيرى أن المثاليات لم تتحقق في أي رقعة من الأرض ، وإنما هو الرضى بأبدع ما في الإمكان .

قال أبو عبدالرحمن : إذن الحرية نسبية ، ومعيارها ليس في ذاتها ، وإنما موضوعها موضوع للمعايير ، فتكون خيراً أو شراً ، وقبحاً أو جمالاً ، وحقاً أو باطلاً بناء على نوع الحكم في موضوعها ، فالتحرر من القيود الخيِّرة شر .

بيد أن مفلسفي الحرية من المضللين والمضللين - بصيغتي اسم الفاعل والمفعول - لما رأوا انعتاق مدلول الحرية من المعيارية ادعوا على لفظها أنه أكثر الألفاظ غموضاً ولبساً (٣٣) .

قال أبو عبدالرحمن : وأكثر المعاناة من مفكرين مخلصين لرفع شعار

---

(٣٣) انظر على سبيل المثال ميادين الحرية ليوسف ميخائيل أسعد ص ٤ .

الحرية ؛ لأنهم يعتقدون أنها قيمة في ذاتها .

وفي إحدى المناسبات ناقشت كليمة للدكتور محمد أركون ، فرأيت أنه لما عجز عن طرح مطلب حرية التعبير من مقتضى فكري لجأ إلى المنظور من زاوية في تاريخنا الإسلامي ، فرأى نَفاق سوق المناظرات .

وبينت واقع ذلك المنظور أن مسألة المناظرات التي هي وجه من حرية التعبير عمرت في ذلك التاريخ ؛ لأن دولة ذلك التاريخ ذات دين يرى أن المناظرة حق للمواطن المعارض إذا ادعى أن لديه برهاناً على دعوى يرفضها المجتمع والدولة .. إلا أن هذا الحق لا يكون واجباً متعيناً على الدولة أو المجتمع للمواطن إلا إذا أرادا منه التزاماً برأي أو أداء يرفضه المواطن الذي هو لبنة من المجتمع .. فإذا أرادا منه أن يجدد إيمانه بعد ردة فمن حقه أن يناظر ويرافع ويُسمع تعبيره .

أما كونه لا يُسمح له بالردة بعد المناظرة فلذلك معنى ديموقراطي لعله يتاح لشرحه فرصة أخرى .

والمناظرة في مثل هذا الخلاف لا تؤثر في ديننا إلا في نطاق القضاء والمرافعة ، ولا تُتاح لمجالس العامة .

فإن أُثر منها شيئ في تاريخنا فذلك بسبب ضعف في التزام الدولة والمجتمع ، أو اتكال على تماسك المجتمع ، وأن صوت المعارض حشرجة لا تضر .

ومهما كان من هذه المناظرات في ديننا أو تاريخنا فهو لا يتعدى حرية التعبير في نطاق المناظرة .. حيث يرشح المجتمع للمعارض من يقوم بمناظرته .

ومن أوجه الحرية المشروعة في ديننا في مجال التدبير السياسي حرية الشورى .. قال القرطبي : « والشورى مبنية على اختلاف الآراء ، والمستشير

ينظر في ذلك الخلاف ، وينظر أقربها قولاً إلى الكتاب والسنة إن أمكنه ، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً عليه ؛ إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب ، وبهذا أمر الله تعالى نبيه » (٣٤) .

قال أبو عبدالرحمن : يفهم من هذا أن المقتضي للشورى البحث عن الصواب عند اختلاف الآراء ، والشورى فيما يسع فيه الاجتهاد .

ومن الطبيعي أن الفرد سواء أكان حاكماً أم محكوماً لا يستشير إلا فيما أشكل عليه ، ولهذا فللحاكم أن يفعل ما وضح له أمره سواء في الأمور الدنيوية بمقتضى تجاربه في الحكم ، أو الأمور الشرعية فيما تكرر تطبيقه من فتاوى العلماء .

ولكن إذا وجد من الرعية جملة وأفراداً من ينتقد ما أمضاه الحاكم نقداً بحجة ، أو وجد من يستشكل ما أمضاه الحاكم فيها .. هنا يلزم الحاكم إمضاء الشورى ؛ لاستدراك ما فات إن أمكن ، أو على الأقل ملاحظة ما سيحدث في المستقبل .

قال أبو عبدالرحمن : لا يُعهد في نصوص الشرع تنظيم للشورى كيف تكون .. هل : هي وفق مجلس يتم بالانتخاب ، أو بالتعيين ، أو بين بين ؟ .

إنما يعهد فيها تعيين للترتيبات الإدارية لإسماع الناس المشكلة واستماع حلولهم .

وهناك وقائع من الشورى منها ما اقتصر على أنفار كاستشارة رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما في أسرى بدر .

ومنها ما كان عاماً لكل من سيشارك في الواقعة كاستشارة رسول الله ﷺ

---

(٣٤) تفسير القرطبي ٤/٢٥٢ .

لأصحابه يوم أحد أين ينزل ؟ .

ومنها ما هو شورى للعامة والخاصة كشورى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هدية بعثت بها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب زوجة عمر رضي الله عنهم إلى امرأة هرقل .. فإن عمر دعا للصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصلى بهم ركعتين وقال : إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري .

قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم ، فأهدت لها امرأة ملك الروم ؟ .

فقال قائلون : هو لها بالذي لها ، وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ، ولا تحت يدك فتتقيك .

وقال آخرون : قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ، ونبعث بها لتباع ؛ ولنصيب ثمناً .

فقال عمر رضي الله عنه : ولكن الرسول رسول المسلمين ، والبريد بريدهم ، والمسلمون [illegible] صدرها .. أي عظموا أم كلثوم في صدر ملكة الروم .

فأمر بردها إلى بيت المال .

إن المفكر المسلم الذي لا يجد في دينه ترتيباً إدارياً معيناً لبعض المسائل كمسألة الشورى واجب عليه أن يجتهد في تطبيق الشورى في إطار المقاصد الشرعية .

إن المقصد من الشورى حل للإشكال الذي ينشأ عند المستشير وهو الراعي ، وحل للإشكال الذي ينشأ عند المستشارين وهم الرعية .

وهذا المقصد النبيل يحقق ثلاث غايات جوهرية :

الغاية الأولى : استشارة من ينبغي طاعته ؛ لأنه يستكشف حكم الله الشرعي في الواقعة .

وهذا ليس لغير علماء الشريعة المطهرة فهم ورثة الأنبياء المبلغون لشرع ربهم جيلاً بعد جيل نصاً ومضموناً .

وأي مسألة الحكم فيها للشرع وحده فمن العبث أن يستشار فيها غير رجال الشريعة (٣٥) .

بل من الرغبة عن شرع الله أن يُستفتى من لا علم له بشريعة الله .

الغاية الثانية : استشارة من خبرته مظنة الصواب .

وذلك في الأمور الدنيوية حيث يستشار في مجال خبرتهم كل من الأطباء إذا كانت الواقعة طبية ، والمهندسين في مجال خبرتهم إذا كانت الواقعة هندسية ، وهكذا بقية أهل المهن والحرف والمهارات والخبرات النظرية .

والغاية الثالثة : استشارة من له حق الرأي ؛ لأنه شريك في المصلحة أو المفسدة المترتبة على الواقعة كالنصراني واليهودي الذمي الذي له حق المواطنة ، فلابد من سماع صوته ورأيه ؛ ليعامل في النهاية في إطار تنظيم الشريعة المطهرة لمعاملة المسلمين لغير المسلمين .

وقال الدكتور توفيق الشاوي عن شورى غير المسلم : « لقد أشار السنهوري في كتاب الخلافة إلى أن الأمة الإسلامية كانت طوال تاريخها لا تقوم على معيار العقيدة وحده ، وأنها كانت دائماً تضم أفراداً وطوائف غير إسلامية تتمتع بصفة المواطن (٣٦) ، ومعنى ذلك أن الدولة الإسلامية دولة مدنية تقوم على

---

(٣٥) قال الدكتور توفيق الشاوي في كتابه فقه الشورى ص ٢٤ : « لا قيمة للتشاور إلا إذا كان من أجل تحقيق أمر يتفق مع مقاصد الشريعة ومبادئها ، فإذا تشاورت جماعة للعدوان وارتكاب الجرائم فإن قراراتهم لا تكون صحيحة شرعاً ، سواء أصدرت بالاجماع أو بالأغلبية ؟ » .

المواطنة (٣٦) ، لكن الحكم فيها للأغلبية المسلمة ، طبقاً لمبدأ الديموقراطية التي تجعل شرعية الأغلبية هي شريعة المجتمع .

إن هذه الفكرة التي يشير إليها السنهوري ومَن ذكرهم في كتابه لم تكن نتيجة اجتهاد في الفقه ، وإنما وضعت أساسها السنة المطهرة في أول وثيقة دستورية في الإسلام وضعها رسولنا الكريم ﷺ والتي (٣٧) يطلق عليها البعض دستور المدينة (٣٨) .

ونحن نؤيد ما قاله الدكتور محمد العوا من أن هذه الوثيقة أعطت لليهود المقيمين في المدينة والمجاورين لها صفة المواطنين في الدولة الإسلامية ، وأن ما ورد فيها من مبادئ هي الأساس الدستوري في الإسلام للعلاقة بين الأغلبية الإسلامية والطوائف الدينية غير الإسلامية التي يتمتع أفرادها بصفة المواطنين ؛

---

(٣٦) قال الدكتور توفيق عن السنهوري : « وقد أشار في كتاب الخلافة إلى أقوال كثير من المؤرخين من أن الأقليات المسيحية واليهودية قامت فعلاً خلال جميع مراحل التاريخ الإسلامي بدور إيجابي في بناء الحضارة والثقافة الإسلامية .. حتى أصبحت في الواقع حضارة شرقية ساهمت فيها جميع الشعوب والطوائف التي عاشت جنباً إلى جنب مستظلة براية الإسلام ، محتمية بشريعته التي كانت دائماً النظام القانوني العام لجميع الشعوب والطوائف المكونة للأمة الإسلامية .

واستشهد على ذلك بأقوال عدد من الكتاب غير المسلمين .. سواء من الأوروبيين أو الشرقيين مثل البروفيسور لامير وكاراديفو وكريستيان شرفيل وجورج سمنه .

تراجع البنود (٥٦٠ ، ٥٦١) من كتاب : « الخلافة ص ٥٨١ في النص الفرنسي وما بعدها .. وخصوصاً الهوامش المطلولة ،ويقابلها ص ٣٥٠ وما بعدها من الترجمة العربية التي نشرناها » [الشاوي] .

(٣٧) واو العطف هاهنا لحن شنيع .

(٣٨) قال الدكتور توفيق : « يراجع النص الكامل لهذه الوثيقة والتعليق عليها في كتاب الدكتور محمد حميد الله مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٤١ وما بعدها ، وكذلك كتاب : النظام السياسي للدولة الإسلامية للأستاذ الدكتور محمد سليم العوا ص ٥٠ الطبعة السابعة ، دار الشروق ١٩٨٩م بند ١١ » .

ولذلك يجب استبعاد ما استحدثه الحكام أو الكتاب من قواعد خاصة بأهل الذمة تخل بمبدأ المساواة في المواطنة والحقوق الإنسانية .

إن أهم نصوص هذه الوثيقة في نظرنا هو البند الأول منها الذي ينص على ما يأتي : (هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس) .

إن رسولنا الكريم لم يقصر المواطنة على المؤمنين والمسلمين من المهاجرين والأنصار ، وإنما أضاف إليها من تبعهم ولحق بهم .. فاللحاق بالأمة هو كل عمل أو وضع يعني الانضمام إلى مواطنيها ومشاركتهم في مسؤوليات المواطنة والتزاماتها .

وإذا كان الانضمام باعتناق الدين الإسلامي فإن المواطن يكون من الأغلبية المسلمة بمقتضى إعلان الشهادة .. أما إن كان من طائفة أخرى فإن انضمامه يكون بمقتضى عقد الذمة ، وهو عقد دستوري ، ليس معاهدة مع الأعداء .

لكن جرى كثيرون على الخلط بينه وبين عقد الذمة مع الأعداء المحاربين الذي يعتبر عقداً دولياً أو إجراء عسكرياً صلحاً أو هدنة ، لذلك نرى الأستاذ فهمي هويدي يقترح إعادة النظر في هذا الاصطلاح باعتباره وسيلة لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عن علاقة المسلمين بمواطنيهم غير المسلمين .

وفي نظرنا أن تغيير المفاهيم أو تصحيحها لا يستلزم حتماً تغيير المصطلحات ، ولكن إذا كان التمييز بين المراكز القانونية المتنوعة يستلزم تصنيف المصطلحات والتمييز بينها لمزيد من الدقة والوضوح فإننا لا نرى مانعاً من ذلك كما فعلنا في التمييز بين الشورى والاستشارة ؛ لأن العبرة بالمركز القانوني وما يترتب عليه من حقوق وواجبات ، وليست الأسماء والمصطلحات إلا وسيلة للتمييز

بينها ، ونحن نرى من الضروري التمييز بين مركز المواطن غير المسلم ومركز العدو حتى ولو كان معاهداً » (٣٩) .

وقال الدكتور توفيق أيضاً : « مبدأ الحرية في المجتمع الإسلامي الشورى ليس مقصوراً على حرية الأفراد والأمم ، بل تطبق على المجموعات والجماعات المكونة للأمة ، سواء في ذلك الطوائف الدينية أو الهيئات والمنظمات المهنية والنقابية والجمعيات والأحزاب .. فكل هذه المجموعات هي كالأفراد جزء من الأمة تدخل في تكوينها وتمارس اختصاصاتها الجماعية في الإطار الذي تحدده قرارات الشورى الدستورية أو التشريعية الصادرة من الجماعات التي تدخل في تكوينها الأمة أو الشعب » (٤٠) .

وعن الأهلية في الإجماع والشورى قال الدكتور توفيق الشاوي : « واعتراف العامة لأحد العلماء أو الفقهاء بأنه مجتهد معناه تفويضه لتمثيلهم في الاجتهاد ، فيكون الاجتهاد ممارسة للشورى أو النيابة عن الأمة في مجال الفقه ، ولكن بطريق النيابة أو الشورى غير المباشرة .

ومع ذلك فإن التشاور المباشر بين جميع أفراد الأمة في مسائل الفقه ليس مستبعداً ؛ لأن تعريف الإجماع في ذاته هو أنه إجماع الأمة .. أما نسبته إلى المجتهدين فلكون الأمة اختارتهم لذلك ، وفوضتهم للقيام بهذه المهمة نيابة عنها » .

قال أبو عبدالرحمن : العامي لا يفوض العالم ، بل يفوضه ما أوجبه الله عليه من التفقه والبيان .

---

(٣٩) فقه الشورى ص ٣٢٠ - ٣٢٢ .

(٤٠) فقه الشورى ص ٣٤٩ .

فاعتراف العامي بالفقيه ليس تفويضاً ، بل معناه سؤال أهل الذكر ، ووجوب الطاعة لما أمضاه أهل العلم من قضاء ملزم بعصا السلطان ، ومن فتوى لازمة بغير عصا السلطان .

ومن المسامحة دعوى أن الإجماع الأصولي إجماع الأمة .

والواقع أن الإجماع إجماع أهل الحل والعقد كل في محيط خبرته .

فإذا كان أمر الشورى دنيوياً عادياً وتخصصياً تُؤخذ فيه خبرةُ ذوي التخصص وتجربة الأفراد وآراؤهم الفطرية كالتوسع في سحب المياة الجوفية أو الاقتصاد فيه ، فالشورى لجميع الأمة إن أمكن أخذ رأي كل فرد ، أو عن طريق ممثلي الأمة المنتخبين منها للشورى .

وقال الدكتور توفيق : « وإذا كان السنهوري قد أشار إلى أن الإمام الغزالي قد استبعد مشاركة الأمة كلها في شورى الإجماع : فإن حجته كانت هي أنه غير ممكن عملياً » .

قال أبو عبدالرحمن : كلمة « شورى » هاهنا مغالطة ، لأن الإجماع الأصولي عفوي وليس عن شورى منظمة ، والغزالي استعمل مصطلح الإجماع ، ولم يستعمل المصطلح المدعى ، وهو شورى الإجماع .

والحجة الأخرى التي أضيفها إلى حجة الغزالي أن كل علم يؤخذ من أهل العلم فيه .

وقال الدكتور توفيق : « ولقد رد عليه السنهوري بأنه يمكن أن يُكتفى باتفاق ممثلين تختارهم الأمة بدلاً من الأمة كلها ، وهؤلاء الممثلون هم المجتهدون كما قدمنا .

ونضيف نحن إلى ذلك أن هناك رداً آخر على حجة الغزالي ، وهو القول بإمكان أخذ رأي جميع المسلمين بطريق الاستفتاء الشعبي المباشر ، وهي وسيلة

إبداء الرأي لمجموع الأمة .

وإن كان فقهاؤنا لم يعرفوها ولم يناقشوها ؛ لأن وسائل الاتصال والانتقال التي يمكن بواسطتها إجراء الاستفتاء في عصرنا لم تكن ميسرة في عصرهم ، وبهذا يمكن بطريق الاستفتاء تنظيم الإجماع المباشر أو الشورى المباشرة في العصر الحديث .

ورغم ترجيح الجمهور لرأي الغزالي إلا أننا نرى أن مشاركة الأمة كلها في عملية الاجتهاد أو الإجماع أو الشورى كذلك يمكن أن تتم بإبداء الرأي من جانب جميع الأفراد بطريق مباشر بالاستفتاء (الديموقراطية المباشرة) .. كما أنها يمكن أن تتم على درجتين بطريق نيابي ، فيختار جمهور الأمة من هم أقدر على ممارسة الاجتهاد بطريق الإجماع أو الشورى ، وذلك في إطار سيادة الشريعة التي هي مصدر مشروعية الشورى والاجتهاد والإجماع .

والظاهر في بعض كتب الفقه أن الأصل في الإجماع هو مشاركة جميع المسلمين الحاضرين فيه جميعاً ، ومنه أخذت كلمة الإجماع .

ونعتقد أن المقصود به في الأصل هو ذلك النوع من التشاور المباشر ؛ لأن السوابق التاريخية التي استند إليها الفقهاء في عهد أبي بكر وعمر تؤكد أنه قد شارك في إبداء الرأي جميع المسلمين الحاضرين في السقيفة ، بل وفي المدينة كلها .

ولعل هذا هو أساس رأي القائلين بأنه يكفي للإجماع رأي الأغلبية ، ويكون المقصود به هو مشاركة الجميع في الرأي ، وإن كان الذي يُرجَّح ويُلزم به الجميع في النهاية هو رأي الأغلبية (٤١) .

---

(٤١) بشرط أن يكون المراد أغلبية من له الشورى ، ولا شورى للعامي في أحكام الشريعة .

ولا يشترط أن يكون الإجماع كاملاً ٠٠ أي أن يتفق الجميع في الرأي في نظر بعضهم ٠

ومع ذلك نحن نرى أن الإجماع الكامل إذا تحقق فعلاً فلابد أن تكون له حجية أقوى من حجية قرار الأغلبية ، ولو قلنا إن رأى الجمهور أو الأغلبية ملزم في النهاية ٠٠ إلا أن إلزامه ليس في مرتبة إلزام الرأي الإجماعي » (٤٢) ٠

قال أبو عبدالرحمن : ليست الحجة للغزالي وحده ، ولكنها حجة الجمهور ٠

وإبداء الرأي لمجموع الأمة يكون في غير الأحكام الشرعية ، وإنما هو في الأمور الدنيوية الراجعة إلى ممارسة الأفراد وخبراتهم وفطرتهم ٠

وتسمية الشورى إجماعاً مباشراً زيادة تضليل ؛ لأن أهل الشورى في الغالب يختلفون ، فيكون الترجيح بوسائل أخرى تقطع النزاع كالأخذ بالأكثرية ، أو اعتبار اختيار الرئيس مرجحاً ٠

وكيف تُلتمس سيادة الشريعة إذا طُرحت أحكام الشرع لجمهور الأمة غير المتخصص في الشريعة ، وحينئذ يقابل اختصاص ذوي العلم الشرعي باختيار السواد الأعظم من الأمة ، وهناك الجهل بالشرع وأهواء النفس وشهواتها ، والحكم على مراد الشرع بمرادات البشر ٠

قال أبو عبدالرحمن : والشريعة التي هي الأصل فيما ذكره الدكتور توفيق هي التي خصصت أهل الذكر بالسؤال ، ولم تُوصِ بسؤال الغوغائية ٠

وسلف البيان بأن العبرة بأهل العلم ، فإذا كان العلم المطلوب شرعياً فيؤخذ من أهل العلم الشرعي ، وإذا كان دنيويا تخصصياً فيؤخذ من أهل التخصص ، وإذا كان دنيوياً عاماً فيؤخذ من عموم عقلاء الأمة ٠

---

(٤٢) فقه الشورى ص ١٨١ - ١٨٣ ٠

وعموم الصحابة رضوان الله عليهم (وهم سواد أهل المدينة)علماء بالشريعة ، والشريعة عنهم نقلت ٠

والإمامة أمر عام للمسلمين لا يُستشار فيها غير مسلم ٠

والإجماع في مدلوله اللغوي يعني الاتفاق ٠

ومن يُعتمد اتفاقه في الاصطلاح الشرعي إنما هم أهل العلم بالشرع مع بقية المؤهلات من العقل والدين ٠

فحقيقة الإجماع إذن في الاصطلاح الشرعي – كما يجب أن يكون – : أنه اتفاق أهل العلم الشرعي ذوي الأهلية الشرعية ، وهذا لا يتحقق إلا في الضرورات التي لا يكون مسلماً من لم يقل بها كالإيمان بالشهادتين ، أو لا يكون عاقلاً من لم يقل بها كالعلم بأن النقيضين لا يجتمعان ٠

وحينئذ لا يكون الإجماع هو الاتفاق ، وإنما هو ما ينبغي أن يكون عليه الاتفاق ، وهذا أحد مذاهب ابن حزم ٠

وأما الإجماع بمعنى الاتفاق فلا يتصور إلا في ثلاثة مواضع :

أولها : اتفاق جماعة معينين معروفة أسماؤهم متفرقين في الآفاق أُخذت أقوالهم بالمراسلة أو المهاتفة ٠٠ أو جماعة ضمهم مكان واحد ٠

وثانيها : اتفاق جماعة معينين ممثلين للأمة بالانتخاب ، فيعرف اتفاقهم ، ويكون اتفاقهم إجماعاً حقيقياً بالنسبة لهم ، وإجماعاً حكمياً بالنسبة للأمة التي اختارتهم ممثلين لها ٠

وثالثها : ما لم يعلم فيه خلاف من علماء الأمة في الأجيال المنصرمة مع توفر الداعي لجمع الأقوال على مدار القرون ٠

فهذا إجماع رجحاني له حكم اليقين ؛ لأن عدم العلم بالمخالف مع توفر الدواعي لجمع الأقوال مرجح للإجماع ، وترك الأخذ بالمرجح حتى يوجد ما هو

أرجح منه عناد ، ثم إنه يفضي إلى الأخذ بالمرجوح وهو سفه وتحكم (والمرجوح القول بالاختلاف) أو يفضي إلى الوقف ٠٠ والتوقف لا يكون إلا عند تساوي الاحتمالات ، ولا تساوي مع الرجحان ، فيكون التوقف عناداً ٠

قال أبو عبدالرحمن : قد يوجد في فن من الفنون كالتفسير معنى أخذ به الجمهور ، ثم يستجد للباحث حجة أو حجج تنفيه وتؤيد غيره ، ولا تكون الحجج مما ورد في نزاع الجمهور لغيرهم ٠

قال أبو عبدالرحمن : وقد جرب كاتب هذه السطور نماذج لذلك منها اتفاق النحاة على أن « أفعل » تأتي لمجرد الوصف دون معنى التفضيل ، وبينت في أحد كتبي – وأظنه هكذا علمني ورد زورث – أن معنى التفضيل ضروري الوجود في هذه الصيغة ، وبينت وجه التفضيل في الصيغ التي قالوا إنها لمطلق الوصف ٠

ومن ذلك ذهاب جمهور المفسرين إلى تأويل قوله تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع ﴾ بمعنى : مثلكم ومثل الذين كفروا ٠

وقد بينت في المسائية عدد ٣٢٩٢ في ١٤١٣/٥/٢٥هـ أن هذا قول شنيع يقتضي أن رسول الله ﷺ ناعتق ، وبينت أن المثل للكفار وحدهم ٠

وكل مجتهد عن علم ونزاعة يوفق إلى صواب كثير ضل عن الجمهور ٠

وكثير مما ينسب إلى الجمهور تداوله العلماء تقليداً ومسامحة ، فكان أتباعه جمهوراً ، فالمؤلف كتاباً لتفسير كلام الله أو كتاباً على أبواب جميع الفقه لا ينشط لتحقيق كل جزئية ، بل ينشط لمسائل ويسامح في مسائل ٠

وقال الدكتور توفيق : « لقد أثبت السنهوري في كتابه عن الخلافة بوضوح أن الشريعة الإسلامية سبقت النظم الأوروبية المعاصرة إلى تقرير أهم أصول الحكم الصالح الذي يضمن التوازن بين حريات الأفراد وحقوق الشعوب ،

ويحقق عدالة الحكم ووحدة الأمة ٠٠ وأهم هذه الأصول هي :

١ – هيمنة الشريعة على المجتمع أفراده وحكامه وأغلبيته وأقليته ، وذلك بمقتضى سيادة مصادرها الإلهية وهي الكتاب والسنة ٠

٢ – استقلال الشريعة عن الحكم استقلالاً كاملاً يضمن لها السيادة والهيمنة على الحكام ، ولا يقتصر هذا على الأحكام المستمدة من الكتاب والسنة ، بل يشمل الأحكام المستمدة من الإجماع والاجتهاد على اختلاف صوره وأنواعه والتي (٤٣) تقرر أكثرها بالحوار العلمي الحر ٠

٣ – مبدأ سلطان (٤٤) الأمة يفرضه الإجماع في ميدان الفقه ، كما تفرضه الشورى في الحكم ٠

٤ – وحدة الشريعة كمنبع (٤٥)للثقافة ومصدر للتشريع وأساس لوحدة الأمة٠٠ مع جواز تعدد المذاهب والاجتهادات في إطار الكتاب والسنة والحوار العلمي بالشورى والتشاور الحر ٠

٥ – التزام الحكومة بتطبيق الشريعة وتنفيذها بما في ذلك قيامها بما يلزم لتمكين المسلمين من أداء شعائرهم ، والقيام بواجباتهم الدينية بحرية كاملة ، وعدم تخليها عن ذلك أو التنكر له بحجة فصل الدين عن الدولة » (٤٦) ٠

---

(٤٣) قال أبو عبدالرحمن : واو العطف قبل التي لحن ٠

(٤٤) هذه نظرة متأثرة بسيادة الشعب في الديموقراطيات الغربية ، والواقع أنه ليس في الشريعة مبدأ سلطان الأمة ، وإنما فيه « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » ، فيؤخذ رأي ذوي التخصص ، ويؤخذ رأي جمهور العقلاء في الخبرات المشتركة ٠

(٤٥) الصواب منبعاً للشريعة ، وأما كاف التشبيه هاهنا فهي لغو ٠

(٤٦) فقه الشورى ص ٣٣٨ – ٣٣٩ ٠

قال أبو عبدالرحمن : حكام المسلمين قوامون على هذه الأمور في عهود ما

يسميه الدكتور توفيق وشيخه السنهوري بعصور الخلافة الناقصة التي تضم مثل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، وعبدالملك بن مروان ، وعمر بن عبدالعزيز ، وهارون الرشيد ، وصلاح الدين الأيوبي رحمهم الله .

والخلافة التامة ما كان عن انتخاب ابتداء .. وعنده أن هذا توفر للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم .

قال أبو عبدالرحمن : رسول الله ﷺ ولي أمر المسلمين بوحي الله ، وأبو بكر رضي الله عنه ولي أمرهم بالوحي أيضاً من إشارات الرسول ﷺ وإجماع أهل الحل والعقد .. لاسواد أهل الأمصار ، وعثمان رضي الله عنه ولي أمرهم بانتخاب الستة والوصف الشرعي ، وهكذا علي رضي الله عنه وقد اختلفوا عليه .

وبيعة السواد ليست هي الانتخاب ، وإنما هي الأمر الواجب بعد تعيين الخليفة من أهل الحل والعقد .

والإجماع في ميدان الفقه لا يفرض مبدأ سلطان الأمة ، وإنما هو ضمانة كونية لقضاء الله الشرعي بأن لا تجتمع الأمة على ضلالة ، بل تجتمع على الحق والشرع ، فالسيادة في الإجماع للشرع لا للأمة .

ولو كان التشريع وضعياً ، وكانت الشورى للغوغائية ، ولغير أهل الملة في كل شيئ لكانت الشورى تحقق مبدأ سلطان الأمة .

قال أبو عبدالرحمن : ولكن الواقع أن الشورى في الإسلام للكشف عن الحكم الشرعي والمقصد الرباني لا لتأسيس الحكم ؛ لهذا فالشورى وجه آخر لسيادة الشريعة .

وقال الدكتور توفيق : « وأول شرط من هذه الشروط نفذ فعلاً في عهود الخلافة الناقصة والتزم به سلاطينها وحكامها هو عدم تدخلهم في تطبيق

الشريعة ، وعدم تعطيلهم لأحكامها التي لا تحول دون بقائهم في السلطة ؛ لذلك فإن جميع حكومات الخلافة الناقصة قد التزمت فعلاً بتطبيق أحكام الشريعة فيما يتعلق باستقلال الفقه ، واستقلال الشريعة وسيادتها في المجتمع ٠٠ وقدترتب على ذلك استمرار تطبيقها على علاقات الأفراد الشخصية والمالية والحدود والقصاص ٠٠ وما إلى ذلك من فروع القانون ، ولم يدع أحد منهم سلطة إصدار القوانين الوضعية ٠

وهناك شرط آخر فرضته الأمة على حكام الخلافة الناقصة وسلاطينها ، وهو الدفاع عن وحدة العالم الإسلامي والمحافظة على سلامة أراضيه ، ومقاومة العدوان الأجنبي والخطر الخارجي ، وكذلك التزامها برعاية شؤون المسلمين الدينية والدنيوية ٠٠ ولقد قامت كثير من الحكومات الناقصة بهذه الالتزامات ٠٠ كل منها بقدر يتناسب مع ما يتمتع به الحاكم من مزايا شخصية ومقدرة سياسية » ٠

قال أبو عبدالرحمن : بعكس هؤلاء حكام دعوى الديموقراطية بعد سقوط السلطان عبدالحميد إلى هذا اليوم – باستثناء المملكة العربية السعودية – ، فقد فصلوا الدين عن الدولة ، وجعلوا الأخوة قومية أو وطنية ، ولم يقاوموا العدوان على المسلمين ما دامت الأرض غير عربية !! ٠

وقال الدكتور توفيق : « لكن الاعتراف بشرعية حكومات الضرورة والاضطرار ليس معناه إهمال التفرقة بينها وبين الحكومات الشرعية الشورية التي تمثلها حكومات الخلافة الصحيحة الراشدة ٠

ونحن نأخذ على بعض فقهائنا أنهم خلطوا بين واقع تلك الحكومات الناقصة ومبادئ نظام الحكم الصحيح الذي يمتاز عنها بالالتزام بأحكام الشريعة ومبادئها فيما يتعلق بالشورى التي توجب تولي الحكم بالاختيار الحر

للأمة (٤٧) ، وما يلتزم به الحاكم في سلوكه وتصرفاته من العمل لصالح الأمة لا لصالح أفراد أسرته أو عصبيته أو حاشيته أو شخصه ٠٠ كما توجب أن يخضع للرقابة والمحاسبة أمام أفراد الأمة وعامتها وأمام أهل الحل والعقد (٤٨) الذين اختاروه نيابة عن الأمة (٤٩) ، بشرط أن يكون اختيارهم حراً ، فلا يكفي أن يكون مسؤولا أمام حزبه أو جماعته أو أسرته ٠

والأساس الذي يبنى عليه جواز الاعتراف بحكومات الخلافة الناقصة هو نفس الأساس الذي بنى عليه الفقهاء الأقدمون جواز اعتراف الخليفة نفسه بالولاية لحكام الأقاليم أو الوزراء الذين يفرضون سيطرتهم على إقليم معين بالاستيلاء على السلطة دون تفويض حر واختياري من رئيس الدولة ٠٠ أي الخليفة أو حكومته ، ويسمونهم ولاة أو وزراء بالاستيلاء » (٥٠) ٠

قال أبو عبدالرحمن : وجرى الخلط بين الشورى والإجماع ٠٠ قال الدكتور توفيق الشاوي : « دعا السنهوري (كما سبقه إلى ذلك ولي الله عبدالرحيم الدهلوي) إلى ضرورة تنظيم هيئة تقوم بوظيفة الإجماع » ٠

قال أبو عبدالرحمن : مثل هذه الجماعة تكون جماعة شورى ، وجماعة فتوى ٠

ومن ميزة الإجماع عند الأصوليين أنه كالتواتر لم يتم عن تجميع يُحتمل

---

(٤٧) لم يحصل هذا ألبتة ، وإنما التعيين من أهل الحل والعقد وجمهور من حضر كما سلف بيانه عن تولي الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ٠

(٤٨) قال أبو عبدالرحمن : وكذلك الحاكم المسلم إذا أخذ الأمر غلبة يظل تحت هذه الرقابة ٠ ويقصر عمر الدولة أو يطول في بلاد المسلمين بمقدار سيادة الشريعة في المجتمع ، وبمقدار التزام الحكومة بها ٠

(٤٩) أو بايعوه اضطراراً على الكتاب والسنة ، والتزم هو لهم بذلك ٠

(٥٠) فقه الشورى ص ٤٩٦ - ٤٩٧ ٠

فيه التواطُؤ ، وإنما حصل الإجماع عن غير قصد للاجتماع .

وقال الدكتور توفيق : « وقد انتقد أصحاب هذا الرأي موقف الفقهاء المسلمين لعدم إقدامهم على تلك الخطوة الضرورية ؛ لقيام مؤسسة تشريعية إسلامية تماثل البرلمانات الأوروبية ، أو المجامع الكنسية » .

قال أبو عبدالرحمن : بل هذا موجود ، ولكنه يكون عند حصول النائبة ، فيجمع علماء الأمة وفقهاء المذاهب الفقهية للمشورة والفتوى .

وقال الدكتور توفيق : « وقد علل السنهوري (كما سبقه إلى ذلك عبدالرحيم الدهلوي) إحجام الفقهاء عن الإقدام على تلك الخطوة بالظروف السياسية التي عاش في ظلها هؤلاء الفقهاء تحت سيطرة حكام استولوا على الحكم بالقوة والعصبية بعد انقراض الخلافة الصحيحة ، وانتهاء عهد الخلفاء الراشدين ؛ لأن هؤلاء الحكام قد أقاموا نظم الحكم التي توافق أهواء هم دون اكتراث بآراء الفقهاء ذوي الكلمة المسموعة ، ومنعوهم من التجمع في مجالس مستقرة للاجتهاد ؛ خوفاً من أن تتعرض هذه المجالس لمسائل الحكم ، أو أن آراء هم سوف تكشف عيوب حكمهم ومخالفته مبادئ الشريعة .

وفي نظرنا أن هذه الدعوة إلى تنظيم الاجتهاد تستلزم ضمانات جدية للتأكد من حماية هذه المجالس أو المجامع من ضغوط الحكومات وتدخلاتها في اختيار أعضائها ، وفي أعمالها في الحاضر والمستقبل .

إن الخطر الذي كان يخشاه الفقهاء السابقون (وهو وقوع هذه المجالس تحت تأثير الضغوط السياسية) مازال قائماً في كثير من البلاد .

ونحن نشاهد اليوم كثيراً من المظاهر لانعدام الثقة بين الجماهير والعلماء الذين يحتلون مناصب رسمية ، ويتقاضون مرتبات حكومية . . مما جعل الناس عامة يعتقدون دائماً بأن تصريحاتهم (بل فتاويهم وقراراتهم أيضاً)

ـ لإرضاء ذوي السلطة ٠٠ حتى أصبحوا يطلقون على كثير منهم لقب : فقهاء السلاطين » ٠

قال أبو عبدالرحمن : دعوى إحجام الفقهاء ودعوى الظروف السياسية مجازفة ؛ لأن المؤسسة التشريعية الرسمية المعينة لم تكن موجودة في عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه الراشدين ، فيكون هؤلاء الحكام ألغوا أمراً قائماً ٠

وسيأتي الكلام عن حال الشريعة المطهرة في عهد أولئك الحكام الفضلاء ، وأن الشريعة إنما نُعِيت في ظل حكام تمسحوا بديموقراطية تفصل الدين عن الدولة ٠

والخشية التي ذكرها مجرد دعوى ، ولم يرد نص بتعيين أو انتخاب مؤسسة تشريعية ، وإنما المؤسسة قائمة بتعيين جهات القضاء والفتوى والحسبة ، وأخذ آراء علماء البلد أو الدولة عند اختلاف العلماء ٠

وفساد حال بعض الفقهاء محتمل ، ولكن اتهام الغوغائية للعلماء ليس حجة دائماً ، وفتاوى العلماء إذا وافقت مصلحة الدولة أو السلطان لا تكون متهمة دائماً ٠

وترويج مثل هذه الدعوى من مثل السنهوري أو الدهلوي لا تليق ، وإنما الإنصاف أن يَجمع المروِّجْ فتاوى أُتُّهِمَ أصحابُها بمجاملة السلطان ، ثم يدرسها فيتضح له أنها باطلة ، وأنها الغالب في فتاوى فقهاء السلطان ٠٠ وحينئذ يجوز مراعاة اتهام الغوغائية لفتاوى السلطان ٠

ولو فعل لما وجد إلا النزر القليل كاختلاف فتوى الفقيه عبدالملك بن حبيب في حالتين متماثلتين بتهمة القرابة لا بتهمة مراعاة السلطان ، وقد استعرضت هذه الحادثة في كتابي أنابيش تراثية الصادر عن نادي أبها الأدبي عام ١٤١٣هـ ٠

وعلماء العصر لا يُخلون الساحة من معركة علمية للفتاوى المجاملِة لو وُجدتْ ، وفقهاء السلطان يراعون علماءَ عصرِهم وفشوَّ العلم .

وقال الدكتور توفيق : « ولا نرضى أن يحاصر فقه الشريعة في مجامع السلاطين أو دوائر الدول والحكومات ؛ لأن ذلك أخطر من انحرافات بعض العلماء أو الفقهاء كأفراد ؛ لأن الفقيه الفرد إذا انحرف أو أخطأ وجد من يرد عليه أو يكشف خطأه وانحرافه أو ينتقده .. أما المجامع فإنها تحصل على طابع رسمي يغري الحكومات والسلاطين باستخدامها أداة لتمكين سلطتهم ، وتحقيق أغراضهم الحزبية أو السياسية أو الشخصية ؛ لذلك فإننا لا نشارك السنهوري أو عبدالرحيم الدهلوي أو أمثالهم ممن يعتقدون أن عدم وجود المجامع الفقهية طوال التاريخ الإسلامي كان مجرد تقصير من علمائنا أو تخلف في أنظمتها .

والصواب في نظرنا أنه كان ضرورة ؛ لإبعاد الفقه عن سيطرة الحكام ، واستقلاله عن الدول .. وهو مبدأ تميزت به شريعتنا ، وحصَّن فقهاءنا من تدخل السلاطين وفقهاء السلاطين ومجامع السلاطين .

إننا نرجو ممن يفكرون في أي تنظيم لمجالس أو مجامع علمية أن يبحثوا قبل كل شيئ عن الطريقة التي تحصن هذه المجامع وأعضاءها من سيطرة الحكام ، وضغوط الحكومات ، وإغراءات ذوي السلطة ، وتدخلاتهم ؛ حتى يضمنوا للفقه استقلاله ، وللعلماء حريتهم الكاملة ، ويعبروا بصدق عن آراء علمية مجردة عن الهوى والغرض .. كما قررت ذلك شريعتنا ، وكما مارسه أسلافنا في جميع عصور تاريخنا الزاهر .

إن احتفاظ الفقه الإسلامي باستقلاله الكامل في مواجهة السلاطين والحكام كان أكبر مفخرة من مفاخر نظامنا السياسي حتى عهود الخلافة الناقصة .. سواء في الدولة الأموية أو العباسية أو ما بعدهما .

ومما يؤسف له أن كثيرين من المتأثرين بكتابات الغرب وثقافية أوروبا يتنافسون في التنديد باستبداد حكام المسلمين في تلك الفترة ، ولا يلاحظون أنهم مهما قيل عن انحرافهم عن مبدأ الشورى في الشؤون السياسية إلا أنهم لم يستطيعوا قط أن يقحموا نفوذهم في آراء الفقهاء ؛ لأن الفقهاء كانوا يفتدون حريتهم الفكرية بحريتهم الشخصية ، وسلامتهم الجسمية ، فكانوا يفضلون أن يُضربوا ويُعتدى عليهم دون أن يخضعوا لرغبات الحكام أو لإغراءاتهم أو تهديداتهم ، أو أن يسعوا لإرضائهم ٠٠ وتاريخ الإسلام حافل بشواهد تؤكد ذلك ٠

ولقد تبين لنا أن أسلوب الشورى المرسلة التي تتم عن طريق تبادل نقد الكتب والمؤلفات والبحوث الصادرة عن العلماء الذين تفصل بينهم مسافات بعيدة أو أجيال وسنون ، أو عن طريق المناظرات بين المفكرين والعلماء المعاصرين لهم ٠٠ هذا الأسلوب من التشاور المرسل الحر الذي لايتقيد بمجالس أو مجامع يوفر من الضمانات قدراً أكبر مما يتوفر في المجالس والمجامع ٠

إذا كان ذلك في الماضي هو السبب في عدم لجوء المسلمين إلى الأسلوب التنظيمي في الشورى الفقهية فإننا مازلنا نعتقد أن الأوضاع السياسية في كثير من بلادنا لا تبشر بإمكانية توفر ضمانات تحمي الفقهاء من ضغوط الدول ، وبالتالي فإنها لا تسمح في نظرنا بتنظيم مجلس فقهي يثق الناس بأن آراءه وفتاويه مستقلة عن الحكومات والحكام ٠

ثم إن الشورى الفقهية المرسلة تعطي جمهور الناس والخبراء والمختصين في جميع نواحي الحياة الاجتماعية فرصة كبرى للإسهام في صنع آراء الفقهاء والمجتهدين والمفكرين ؛ لأنها تدور في آفاق واسعة ، وتناقش على جميع المستويات ، وليست حبيسة أو مقيدة داخل مجلس أو مجمع يوهم الناس أن الرأي الفقهي

يحتكره الجالسون في هذا المجلس أو الهيكل .

ثم إننا نخشى أن يُستدرج المسلمون إلى إعطاء آراء هذه المجالس قداسة وحصانة لم تقررها الشريعة ، وإنما تفرضها الدولة وأجهزتها الرسمية والإعلامية كلما كان الرأي الصادر يتفق مع هواها أو مصلحتها .. هكذا نجد أنفسنا أمام اتجاه كهنوتي ينمو في حجر أصحاب السلطة وتشجيع الدولة .. وخصوصاً إذا كان للدولة حزب واحد أو حزب مسيطر يفرض على العلماء عضويته ، وعلى المفكرين أن يعبروا عن رأيهم من خلاله ؛ حتى يتأكد الجالسون في مقاعد الحكم أنها لا تُوقظ الآراء أو التيارات التي يخشون منافستها لهم ، أو معارضتها لسلطانهم » .

وقال الدكتور توفيق الشاوي : « ذكر السنهوري في كتابه الخلافة أن أبا بكر الباقلاني يرى أن جميع المسلمين عدا فاقدي الأهلية لانعدام العقل أو عدم البلوغ يشاركون في الإجماع ، وليس الفقهاء وحدهم .

وينتج عن ذلك أن ما يردده فقهاؤنا من أن الإجماع يقصد به اتفاق آراء المجتهدين معناه أنهم يمثلون الأمة في هذه المهمة .. ونيابتهم عن العامة أساسها أن جمهور الأمة هو الذي يعترف لهم بصفة الإمامة ، ولا توجد جهة أخرى تمنحهم هذه الصفة » .

قال أبو عبدالرحمن : في السابق كان الفقه محاصراً في مذهب الدولة الفقهي الرسمي ، ولم يكن محاصراً في مجامع السلاطين ؛ لأن الفقيه والمفتي والقاضي لا يستطيع أن يدعي للسلطان أو غيره ما ليس في كتب المذهب .

وفي العصر الحاضر لا أعلم دولة تطبق الإسلام غير المملكة العربية السعودية وعندها هيئة كبار العلماء ، وقد استقطبت علماء المسلمين في رابطة

العالم الإسلامي لعقد الشورى العامة حول أحوال المسلمين وقضاياهم ٠

قال أبو عبدالرحمن : والإعجاب بالرأي القائل بأن الغوغائية أهل إجماع متأثر بالآراء الديموقراطية التي ترى أن الشعب يحكم ؛ ولهذا جعل اعتبار إجماع المجتهدين من جهة أن جمهور الأمة هو الذي يعترف لهم ٠

قال أبو عبدالرحمن : الذي جعل لهم الاعتبار في الاجماع أمران :

أولهما : أنهم أهل العلم المطلوب فيما يطرح للشورى ، وهو العلم الشرعي ، ومن لا علم له كيف يُستشار ؟ ٠

وثانيهما : أن علمهم الذي يحملونه واجب الطاعة بإيجاب الله ، فوجبت طاعتهم لذلك ، واعتبر إجماعهم لذلك ٠٠ وإذن فلا تتوقف طاعتهم على اعتبار جمهور الأمة ، وإنما عَلِمَ الجمهور أنهم أهل علم شرعي ، فوجب عليهم ما يجب من طاعة أهل العلم فيما أمروا به من طاعة الله ٠

الفصل الخامس : جيل الالتزام للإسلام وأوشاب عهد عام ١٩٥٢م وما تلاه من تغيرات :

[التعسف وسوء الملكة لمن خولك الله أمره من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس ، ودناءة الهمة ، وضعف العقل ؛ لأن العاقل الرفيع النفس العالي الهمة إنما يغالب أكفاءه في القوة ، ونظراءه في المنعة .. وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع ، ورذالة في النفس والخلق ، وعجز ومهانة .. ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرذ ، أو بعقر برغوث ، أو بفرك قملة .. وحسبك بهذا ضعة وخساسة .

أبو محمد ابن حزم

مداواة النفوس ضمن رسائل ابن حزم

٣٩٤/١]

قال أبو عبدالرحمن : أمس المسلمين ببيئتنا ، وأكثرهم حبوراً بواقعنا في الجملة حسبما ينبغي أن يكون أجيال الحماس الشبابي للإسلام ، وهم في دور المواجهة لطلائع العلمانية في كل مكان ، وهم الأجدر بأن يكونوا عوناً للإسلام لا عوناً عليه .

لقد كان غالي شكري الأرثوذكسي ينكت بمعالم في الطريق لسيد قطب وما في حكمه ، وكأنه في طبقة من يدَّعون تاريخاً إسلامياً عربياً .

وكتب القصيمي العلماني كتاب العرب ظاهرة صوتية يستهزىء بالعقلية العربية ، والتاريخ العربي ، والانتماء الإسلامي .

وبلغ من تردي الحال أن كان المفكر المسلم المثقل بهموم أمته لا يصعق من مثل ذلك الكفر الوثني والعلماني .

وبارك الله في جيل الشباب المتحمس للإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، فأعادها سلفية .

وذاق ذلك الجيل لذة العبودية لله سلوكاً وفكراً وعقيدة ، واستعلى على الهزيمة الروحية والإرهاب الفكري .

وكان من حق المفكر المسلم اليوم - بل من واجبه - أن يعيش على وجل أكثر منه في عهود التردي - فيصعق لأدنى رائحة من كل الكفر في كل رقعة اكتسبت هويتها التاريخية باسم الفتح الإسلامي .

من واجب المفكر المسلم اليوم أن يقف بالرصد فكرياً لكل تشكيك في جدوى الالتزام الفكري والسلوكي لدى جيل الحماس .

ومن ذلك التشكيك ما صاحب حماس الشباب منذ ست سنوات في مجلة ثقافية عربية تعشعش فيها أفراخ الماركسية .

في تلك المجلة كتب الدكتو عبدالسلام نور الدين افتتاحيتها بعنوان « في

نقد العقل البدوي » .

وكانت أيضا تهكماً بالشيمة العربية في معرض الرد على كتاب «البدو والقبائل الرحالة في العراق » لمكي الجميل ، ولا يختلف هذا التهكم عن النفس الشعوبي القذر في كتاب العرب ظاهرة صوتية .

يرى هذا الدكتور في جيل الشباب المتحمس للإسلام رجعة مرضية - بفتح الميم والراء - إلى الماضي ، ويفتري على هذا الجيل مقولات ليست من منطق تصوره .

فمن تلك المقولات الكاذبة دعوى أن ذلك الجيل يسقط الحاضر بإطلاق ، وأنه ينظر إلى الحاضر على أنه تشويه للماضي ، وأنه ينظر إلى العلم الحديث والتكنولوجيا على أنه محاولة عبثية لتحدي المشيئة الربانية .

واقتضب أقوالاً من جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب .

ولا مطابقة بين دعوى ذلك الدكتور وبين الأقوال المضيئة لمحمد قطب .

وهناك مقولات حقيقية هي من تصور جيل الحماس ومنطقه عندما يرى في أزمات الأمة وكوارثها - من تآمر الأمم الكافرة - شاهداً على أفول الزمن وقيام الساعة .

وعندما يرى في الماضي الذي يعني العودة إليه قوة مستقلة عن الحاضر ، لا أنه مجرد ظاهرة ماثلة في الحاضر .

وبعد ذلك يطلق أحكامه الجائرة بأن جيل الحماس واليقظة بعد غفلة جيلٍ محاولة زائفة لإعادة التوازن الروحي للشخصية العربية ، وبأن التعامل مع الحاضر لدى جيل الحماس يستوي فيه اغتراب المتصوف وحكم الفقيه الذي يرى كل جديد بدعة مهلكة !! .

قال أبو عبدالرحمن : إنما نشكو من الهذر الصحفي الإعلامي الذي

أصبح الأداة في توجيه المجتمعات ٠٠ نشكو من الهذر الصحفي تضليله بالأسلوب الإنشائي وتوليد مقدمات غير صحيحة المضمون تنتج نتائج كاذبة ٠

فإذا غُرر بالقارئ ، وزُعم له أن العودة للإسلام تسقط الحاضر بإطلاق – مع أن هذا مضمون غير صحيح – : فسيقتنع بسهولة بكل النتائج التي تحكم على جيل الحماس بالتدروش والتخلف إلى آخر قواميس الشتائم ٠

قال أبو عبدالرحمن : لكل من الماضي والحاضر لدى جيل الحماس للإسلام أحوال وأحكام ٠

فمن الماضي – ومعنى مضيه وجود العرب المعتد به – دين الله ، وهو رسالته ووحيه إلى محمد ﷺ الذي نسخ به كل الأديان ، وختم به كل الرسالات ٠

فهذا الماضي قوة مستقلة عن الحاضر ينبغي أن تحكمه وتوجهه ، لأنها تنزيل وهداية وشريعة من خلق الماضي والحاضر والأجيال ٠

ووجود العرب المعتبر مشروط بتحقق هذه القوة ، وهكذا سعادة البشرية دنيا وآخرة مشروطة بهذه القوة ٠

والتاريخ العربي ، والرقعة العربية ، والاستمرار العربي بشرطه التاريخي : إنما هو نتيجه لفاعلية تلك القوة التي يسمونها ماضياً ٠

ولا يفلح العربي إلا باتباع النبي الهاشمي المعصوم عليه الصلاة والسلام ٠

ومن الماضي الفكر البشري لعلماء المسلمين الذي تربى في إطار العبودية لله جل جلاله والخضوع له سولكاً وفكراً واعتقاداً ٠

فهذا فكر له قدسيته في نفوس الخلف وإن لم يدعوا عصمته ٠

وجيل الشباب الملتزم يتعرف بالتعلم ما هو الدليل الشرعي ثم يتبعه ، ويزن به اجتهاد السلف ٠

وعندما يزن اجتهاد سلفه الصالح يسلك مسلكه في التحري وتعبيد العقل لربه ، ذلك أن المطلب مراد الله ومحبوبه ٠

ومن الماضي تراث بشري دنيوي بحت ، وهذا يستوي فيه منطق أرسطو ، وفلسفة أفلاطون ، وذَرية ديمقريطس ، وطب بقراط ، ونونية عمرو بن كلثوم ، وحيوان الجاحظ ، وجبر الخوارزمي ، وأصول ابن جني في اللغة ، وبباب إليوت ٠٠ إلخ ٠٠ إلخ ٠٠ إلخ ٠٠ إلخ ٠

فهذا كله يزنونه بعقولهم ، ومنطقهم الخلقي ، وتجربتهم العملية ، وحسهم الجمالي ، ومهارتهم البشرية ٠

وإذا أتيح لهم وحدة تاريخية نظروا بأرقى وأدق ما توصل إليه العلم الحديث من مجاهر تُشخِّص مالايكاد يرى ٠

ولا يستغرب منهم ذلك ؛ لأنهم أثروا العلم الحديث بتجارب ناجحة ، وبأكثر من تجربة فاشلة ، فبدأ القوم حيث وقف غيرهم ٠

وهم في كل ذلك لا ينفرطون عن الإطار الذي يحكم سلوكهم ، وهو العبودية لله ، والعلم بأن كل شيىء بأمره وإليه مآله ٠

وأما الحاضر فمنه ما أسلفته ، ومنه دقائق في الخبرة والمهارة والفكر تفرد بها الأقوياء وحظروا تعليمها بأقوى من حق الفيتو في الشؤون السياسية ٠

ومنها عفن إما سلوكي عملي ، وإما نظري في فلسفة العلوم والمعارف والحضارات ، وفي الأخلاق والآداب والإدارة والنظام ، وفي ترقيصٍ لشهوات النفس بالحق الطبيعي في السياسة والقانون ، وبشهوات الجمال في الجمال الطبيعي ، والاستهلاك في الجمال الفني ٠

فكل حاضر من هذا اللون يرفضه جيل الحماس ويسعى إلى تغييره ٠

وكيف لا يفعل ذلك وهو متخم بموسيقى بتهوفن ، والتخت الشرقي ، ومجسمات المصورين ، وهو في نفس الوقت أشد ما يكون حنيناً إلى عشر أنامل تصنع إبرة ، وتتحد على جدوى صنعها ؟! ٠

نعم إن كل حاضر للعربي المسلم إنما هو تشويه للماضي مالم يكن تحليقاً على العالم ٠

ذلك أن الله خلق هذه الأمة قائدة رائدة ، وجعلها خيراً ووسطاً شاهدة ، ولا مقعد لها في الذنب ألبتة ٠

ومن أخذ منها مقعده في الذنب فحاضره بلا ريب تشويه للماضي ٠

ومتفوقو شعوب حق الفيتو إنما تميزوا على الأمة العربية والإسلامية بكثرة وميزة المعلوم المحظور تعلمه على المستضعفين ، وهي ميزة ظرفية وقتية وليست ميزة فطرية ؛ لأن الأمة العربية - بشرط وجودها الإسلامي - أذكى وأزكى - وفي تجربتها الماضية والراهنة ، وفي فطريتها العقلية المتفوقة ثوابت غير متغيرات ؛٠

فمن تلك الثوابت أن العقل البشري أشرف وسائل الحكم والتمييز ، وأنه مخلوق لله ، وأن معرفته راسية على ثوابت كنفي المحال ، وإثبات الواجب ، واحتمال الممكن ٠

وإذن فكل فلسفة - وجودية ، أوبرجماتية ، أوطبيعيه ٠٠ إلخ - تعبث بالعقل وتقلق ثوابته فهي تشويه للماضي ، ولا مكان لها بين الأمة المحمدية ٠

ومن ثوابتها أن معطيات المتعاملين مباشرة مع الطبيعة من رجال المختبر والرصد أصدق قولاً من المتبجحين بالفلسفة ، ولهذا تأبى أمتنا أن تكون فلسفة ما وحدها علمية ٠٠ بل العلم خبر خالق الحقيقة ، وما جعله الله معطى

لفطرة العقل السوية كمعارف العقل بدون عبث ، وكحقائق العلم بدون دعاوى وظنون ٠

وجيل الحماس للإسلام الملتزم - بفطرته الذكية الزكية - لا ينظر إلى العلم المادي الحديث على أنه تحد للمشيئة الربانية ؛ لأنه لا يكون في كون الله إلا ما أراده الله ، لأن الله يطلب من عباده أن يتعلموا ويتدبروا ٠

وإنما ينظر جيل الحماس إلى شيىء يُدَّعى باسم العلم وهو يَدَّعي التحدي للمشيئة الربانية كدعوى اغتصاب المعرفة وجحد اليد الإلهية ٠

ويكون ذلك عادة عند مفلسي الفلسفة أو متعمدي التضليل من الصهاينة السياسيين ٠

وينظر ذلك الجيل المبارك إلى تاريخ أهل الإسلام على أنه الأرضية الصلبة لعوالم الرقعتين العربية والإسلامية بعد أن دوختهم التحديات ٠

وقبيل جيل الحماس كانت الناصرية التي عايشتها في صلف الشباب ، وهي تاريخ عربي يتميز جمهوره بالحياء والتقنع من التدين ، ويخافون من تهم الرجعية والتخلف والتزمت ، ويؤثرون كثيراً من عاجل الحياة الدنيا ، ويشكون في بعض حقائق دينهم المغيبة ٠٠ والوقور منهم يتأولها ! ٠٠ وبقيت منهم نوابت علمانية تنفخ في رماد ٠

فهذه الناصرية تاريخ ، وجيل الالتزام الذي عايشته في بداية ضعف الكهولة تاريخ إسلامي ٠

أما الناصرية وأمثالها فقد غلبت على العقول والنفوس لعظمة التخطيط لها منذ سقوط عبدالحميد واستقطاب المثقفين إليها ٠

وكان يعايشهم في جزيرتنا أشياخ من العوام هم آباؤنا وأجدادنا ، وهم من الصلحاء في مساجدهم وبيوتهم وأسواقهم ، وبيوت الله عامرة بهم ،

ومآكلهم حلال ، وهم على أحسن الوعي بأحكام دينهم التعبدية ، وفي أحكام المعاملات لحضورهم مجالس الذكر ورجوعهم فيما ينوبهم إلى أهل الذكر .

ومع صلاحهم ودينهم وقع أبناؤهم في شَرَك الناصرية وشبهها ؛ لأنهم رحمهم الله لا يملكون فكراً ووعياً أصولياً بأحكام الدين يواجهون به طغيان التحدي .

والشباب الملتزم لم يقم في جملته على توجيه بقايا أولئك الأشياخ من العوام وإن كان لدعاء المسلمين بإصلاح الناشئة أثر ، وإنما قام بفضل الله ثم بفضل علماء مفكرين صدقوا مع ربهم وآمنوا بأن الكلمة لا تضيع ، ولم يستوحشوا من قلة المتابع كآل قطب ، وآل الندوي ، والمودودي ، والغزالي وغيرهم .. هكذا أحسبهم والله حسيبهم ، ولا أزكي على الله أحداً .. مع فشل التجارب التي أجريت على الأمة .

والمرجو من هذا الجيل أن لا يكتفي بما عليه الحال قبل الناصرية من إحياء المساجد ومجالس الذكر فحسب ، بل لابد أن ينفر من أهل المساجد طائفة ذوو تفوق في الفكر يواجهون خبث الفكر وجنون العقل في العصر الحديث برحابة أفق وثقة بالغلبة ، لأن دين الله عين اليقين .

قال أبو عبدالرحمن : وفي عهد الناصرية هنيئاً لآل قطب – منذ سيِّد ، وحميدة ، إلى محمد – ما لقوا في سبيل الله ، وأجرهم على الله ، وما نزكي على الله أحداً .

وما أمهل الله أتاتورك العرب الصغير ، فقد أحيا الله بدم سيد قطب رحمه الله شبيبة تحقق المجتمع الذي يريده سيد .. مجتمعاً يرى الإسلام ضرورة لا تقليداً تاريخياً .

وحاقت العقوبة بأتاتورك الصغير ، فكانت على الحول هزيمة ١٩٦٧م ،

التي هي مجرى السنة الكونية فيمن حادَّ شرع الله ، وتلا ذلك بسنوات هلاك الصغير بموت الفجاءة ، وتبع ذلك هلاك صعاليك فالوجا (إيجال ألون) سنة ١٩٤٩م ، الذين سرقوا دين الأمة وأمنها وخيرها .

لقد كان « معالم في الطريق » صياغة أدبية ممتعة لما تربينا عليه بالفطرة ، وعلمناه من ديننا بالضرورة .

فكنا نجمِّل به مجالسنا في حين كان نصراني من أمثال غالي شكري يحذر من رجعية « معالم في الطريق » .

وكان علماني من أمثال صلاح جاهين يرسم الكاريكاتيري الهزلي عن ديك وتسع دجاجات بجريدة الأهرام ، وكان علماني آخر يرسم عمامة أزهري يقذف بها إلى الملعب .

وكانت لي يومها مساهمات صحفية حماسية لم تنضج علمياً بعد ، أنشرها عام ١٣٨١هـ بجريدة اليمامة والقصيم وغيرهما .. تارة باسمي الصريح ، وتارة بكنية « أبي نفلا » ، وكنت متابعاً جيداً للإعلام .. مثل أعداء الله ، وأكاذيب ، وخطب الصغير ، وكان سعد العلماني قبله خطيباً .

حتى برقيات الشباب في الشفاعة لسيِّد ألا يُعدم عايشتها ، وعلى الرغم من قرب هذه الأحداث فما كنت أعيها جيداً ، وكنت أظن سماحة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم - رحمه الله - ولا أحقق ذلك ممن ضم صفوف الشباب لإعداد البرقية تضامناً مع رغبات الشباب في العالم الإسلامي ، ولعل من هو أكبر مني سناً من مشايخي يحقق ذلك للقراء دون غبش من النسيان .

ولست أقول كان فكر آل قطب والغزالي والمودودي غذائي الروحي في الشبيبة ، فذلك الفكر ذاته هو تربية والدي ، وهو تنشئة القرية الأمية العامية .

وإنما أقول : إن أعمال أولئك الأخيار أيقظت عقولنا وربت عواطفنا لتحمُّل الفكر الإسلامي وفهمه فهماً يقرر الحقيقة ، ويشحن المشاعر بالتزامها أكثر مما يزيل الشبه المستوردة .

وبحمد الله انسلخت من تاريخ ١٩٥٢م العلماني النتن نظيف الفكر صلب العقيدة .

وإنما وقعت في غواية فنهم وأدبهم ، فكنت أرتاد حي المنيرة في الظهران في عصور مبكرة ، فأنظر شيئاً من سينماهم وفنهم .

وإذا عدت إلى شقراء وجدت والدي - على فقره وبإلحاح مني - أحد قلة يملكون « راديو فيلبس » على البطارية البدائية .

فكنت أسد منافذ الصفة لأسمع الخمشي أو إحدى الستين : المهدية ، أو بنت إبراهيم !! .

وانهمكت في فنهم إلى أن اتخذت منه مادة للصحافة ، وكنت أروي عطشي لمشاهدة فنهم إذا تنزهت بأبي صير ، أو مارست عملي مراقباً في التلفاز حيث شاهدتْ كثيراً ، ومَنعتُ كثيراً .

ولذلك قصة أيما قصة في مسرد التباريح ! .

وكنت بين مطرقتين : مطرقة الوالد واعظاً ، ومطرقة الشيخ ابن داوود مسخفاً - رحمهما الله - .

فعدت إلى نصابي - لسلامة فكري وعقيدتي - وقد قيل : إذا سلم العود فالحال تعود .

وتحدث عبدالله إمام عن عزلة أعضاء مجلس قيادة الثورة .. ثورة يوليو بمصر .

وصحب حديث العزلة بكلام عن تقشف القوم ونصوعهم بالطهارة والنقاء ،

فليس بينهم من يملك عمارة أو مزرعة أو أرضاً ! .

ودخلهم الأساس المعاش أو الفائدة الربوية ، فقد ذكر أن عبداللطيف البغدادي باع أرضاً ورثها من أبيه ووضع ثمنها في البنك ليعيش بعائده .

وهكذا فعل حسين الشافعي عندما باع حديقة منزله .

وبعضهم ربما استرفد بولده مثل كمال الدين حسين يعمل أولاده موظفين هاهنا في السعودية .

وأضاف إلى النصوع مواقف لبعضهم لا تنكر فالبغدادي مثلاً أزال سور حديقة الأزبكية لتكون للجماهير ، وأنشأ كورنيش النيل (٥٠) !! .

قال أبو عبدالرحمن : نحن أمة مسلمة أوصانا ربنا بالعدل ، وأن نقول الحق أينما كنا ، وأن لا يمنعنا الشنآن من الإنصاف .

ولا ريب أن عالمنا العربي والإسلامي في غاية الوعي بالركائز الثلاث : ماوضعنا الحالي ؟ .. وما الذي نرى ؟ .. وكيف نصل إلى ما نريد ؟ ! .

وعندهم الوعي العلمي والفكري والاستعداد السلوكي .

ولكنهم مغلوبون عسكرياً محاصرون من كل الآفاق بقوة ردع أسلحة الدمار عن بعث تاريخهم المجيد ، وعن ممارسة حياتهم التنموية العادية بغض النظر عن الانتماء الملي .. وإذن فهم في غاية الذل العسكري !! .

والساحة العربية في عهد جيل ٥٢ - على علاتها - أحسن حالاً ، وكان ذلنا العسكري مقنعاً لا يدركه ابن الشارع ونصف المثقف لقوة الترويج الإعلامي وطلاء بعض المواقف .

وبيننا وبين بداية جيل ١٩٥٢م أربعون عاماً ، وتقويم دورهم يكون بمقارنة

---

(٥٠) انظر مجلة روزاليوسف عدد ١٤١٣/١/٢٠هـ ص ٣٥ .

علمية أكاديمية - لا مجرد مقالات عاطفية - بين ثلاث فترات : ما قبل عام ١٩٥٢م ، وما بعد كارثة حزيران عام ١٩٦٧م إلى وفاة الزعيم ، وما بعد ذلك إلى هذه اللحظة .

وعن دور جيل ١٩٥٢م لابد من ملاحظة أمور :

أولها : أن أية طائفة تحكم بدعاية ملية أو نحلية أو مذهبية وضعية أو عرقية تُواجَه بمطالب وطنية وتنمية ومرافق تطلبها الجماهير المتباينة الملل والنحل ، فلا يتميز جيل ١٩٥٢م بإحداث مرفق أو خدمة كهدم سور الأزبكية .

وثانيها : أن أجيالنا (وقد ذكرتُ واقعها اليوم بين سموق الوعي وتخلف القدرة العسكرية) رفضت كل دعاية أو أيدلوجية مرت بها القيادات في العالمين العربي والإسلامي بما في ذلك الطلاء الذي مَوَّهَهُ جيل ٥٢ .

وثالثها : لا مراء أن أعضاء مجلس قيادة الثورة في الأغلب صانوا شرف انتمائهم بالبعد عن الاحتجان والمظهرية وإعلان أو ممارسة مايراه المجتمع فساداً خلقياً .

وفيهم من بلغ من العهر ما لم تبلغه عهود ما قبل ١٩٥٢م المظلومة بتكثيف التشهير وتعميق الواقع الضيق بالأفلام والأعمال التمثيلية الكاذبة .. ومن عهدهم ما كشفت عنه علانيةً أوراق ١٩٦٧م .

قال أبو عبدالرحمن : إلا أن صدق الانتماء إلى المبدأ والإخلاص له لا يعني صواب المبدء ذاته ؛ ولهذا يكون أعضاء مجلس قيادة الثورة - وإن تقشفوا حسب متطلبات دعاية أيدلوجيتهم - مسؤولين عن كل النتائج السيئة التي اقترفها رئيس الثورة فلم ينبسوا ببنت شفه ، ولم يؤثروا العزلة كما أوثروا بها الآن ! .

وهم مسؤولون عن إشعال الفتنة في المنطقة حتى بلغت خسائر التلاعب بكراسي الحكم أنفساً ومالاً وقدرات ومواهب وزمناً مالم تبلغه عشرات المواجهات العسكرية مع عدو شرس كإسرائيل - لو قدر لتلك المواجهات أن تقع - ٠

وهم مسؤولون عن زنزانات التعذيب ، والتغرير بالأمة ، واللعب بمصيرها ببهرج إعلامي كاذب ٠

وهم مسؤولون عن التفريق بين أهل الوطن الواحد بقومية مجردة عن شرطها الوجودي المعتبر وهو الإسلام ٠

وهم مسؤولون عن حصر الأمة في هم وطني يتعلق بالرغيف والرشوة والمحسوبية وتكافؤ الفرص وإنشاء كورنيش النيل ٠٠ مع عزل الأمة عن مصدر عزها وحقيقة وجودها ، إذ من المعلوم أن الرقعة العربية والإسلامية حق تاريخي إسلامي ، ولولا ذلك لكانت العروبة في شبه الجزيرة فحسب ٠

وليس ذلك عزلاً بطريق سلبي ، بل بعمل منظم عادَى كل تقارب عربي بشرط الإسلام ، وكل تقارب مع الأعاجم بأخوة الإسلام ٠

قال أبو عبدالرحمن : وفي فم كل مسلم من ذلك الجيل غصة ، وغاية ما نقوله عن بقية هؤلاء الأشياخ - أحسن الله لنا ولهم الخاتمة - : أنهم نزيهون في عملهم ، مخلصون لمبدئهم ، شرسون في فرضه ، ولكن كثيراً من عناصر ذلك المبدأ مهلك للأمة مؤذ لمشاعرها ٠

وثمة بادرتان من بوادر كثيرة في نظام عمل ذلك الجيل يقف منها المواطن العربي المسلم مبهوراً :

البادرة الأولى : الإمعان في تجسيد مطالب الأمة من محاربة للاستعمار ، وتطلُّب للتنمية دون تبعية ، ودعوة للإصلاح الإداري ٠

وفي العمل قصرت المجال على عناصر عادية بعضها مخلخل شرطه كالعروبة بلا إسلام .

فمحاربة الاستعمار مثلاً موجة ركبتها الثورة ولم تكن فراغاً ملأته .

والتحرر من الاستعمار الظاهري تحقق بطريقين ليس للثورة فيهما تفرد .

أحدهما : التهاب جماهيري ليس عروبيا مجرداً ، ولكنه بدعاية العروبة والإسلام كثورة الجزائر ضد المستعمر ثورة قدمت فيها مليون قتيل يُرجى لهم الشهادة ؛ ولهذا انضم إليها العالمان العربي والإسلامي انضماماً فعلياً بقدر ما تسمح به ظروف ديبلوماسية ذلك العهد ! .

وأجهزة إعلام الثورة (ثورة يوليو) أقوى أجهزة الإعلام في المنطقة ؛ ولهذا ألهبت مشاعر الجماهير وكسبت عواطفهم تجاه ثورة قادها الشعب الجزائري بغض النظر عن احتمال أي دعاية تؤيده .

وحرص رجال ثورة يوليو أن تكون ثورة الجزائر عروبية خالصة ، ولكن مدد الثورة كان إسلامياً عروبياً يتحرى فيه المحارب الشهادة .

وثاني الطريقين : شعوب قليلة العدد ضعيفة العدة كبعض دول الخليج نالت حريتها بغير جهاد أو ثورة وفق معاهدات ووفق ديبلوماسية عالمية تفرض توازن القوى وحدود النفوذ ! .

وإنما حقيقة محاربة الاستعمار في الوقت الذي ولدت فيه الثورة يكون بالتحرر من النفوذ غير الداخلي .

فهناك بلد عربي مسلم ليس هدف شعبه مجرد حق المواطنة في أرضه كما يواطن ذوو الأقلية ممن كان مقيماً أو زائراً .

وإنما هدفه أن تكون له القيادة في أرضه ، وتعيش الأقلية في كنف نظامه الرحيم أفضل مما تعيش الأقلية المسلمة المظلومة بين ذئاب أهل الأرض .

والذي حفظه أنصاف المثقفين أن للثورة ثقلاً وضغوطاً وصلابة موقف في قضايا الأمة العربية .. العربية فحسب .

وإذن فمنطقها أقوى وأقوى لو تمسكت بحق الأمة العربية الإسلامية في أرضها ، ووعدت صادقة بما يدعيه الاستعمار من ديموقراطية ؛ لتطبقه بكل كرم وممنونية على كل مواطن من الأقليات يدين بالولاء لوطنه .

ولكن الذي حصل العكس ، وهو اغتصاب مشاعر الجماهير الإسلامية في أرضها ، وأخذها بالقوة على نظام في الحكم يأباه حقها التاريخي ، وفرض سلوكيات ومرافق آثمة يأباها دين العربي المسلم ، وتعتبر اعتداء عليه وعلى حقه في أرضه .

وحَسْرُ النفوذ الاستعماري الخفي عن المنطقة لا يكون بمشاركته في نوع ذليل من التنمية ، وهو أن يكون سوقاً لنا في بيع مادة الخام بأوكس الأثمان ونكون سوقاً لتصنيعه وإنتاجه بأغلى الأثمان ، وأن يسوِّق لنا على الرغم منا – بضغوط كونية أو تضليل فكري – مالا تحتاجه حياتنا الجادة ، ومالا تَحِنُّ إليه متعتنا المباحة .

ولكن الثورة قبلت هذا التسويق فوجد أعظم مصنع للتخت الشرقي ولتناوح آلات لموسيقى الغربية ، ولم يوجد أدنى مصنع يحتمل أن يخوِّف المستعمر ولو بعد مئة عام ! .

وانحسار النفوذ الاستعماري الخفي عندما يستطيع العربي المسلم على ظهرأرضه مشاركة عباقرة أهل الأرض في اكتشاف خبايا وخفايا كونية في عالم السماء والأرض فضاء وأثيراً وأفلاكاً وبحاراً ويباساً .

وعندما يستطيع أن يضيف إلى موجودات الكون فكرةَ اختراعٍ جديد ، أو صنع مخترع جديد ، أو صنع موجود اختراعه لغيرنا .. وكل ذلك مشاركة

لعباقرة أهل الأرض .

وعندما يستطيع أن يملك عدة للحرب والسلم يخترعها ، أو يصنع مثلها ، أو يملكها بجهده المالي وحيله الديبلوماسية ، ثم يملك حسن استخدامها في الدفاع عن نفسه وحماية حقه .

وقد ودع أعضاء مجلس قيادة الثورة - بسلامتهم - ميدان الأعاصير ، ولم يكسروا الاستعمار بشيىء من ذلك ! .

والبادرة الثانية : التورم التاريخي في تجسيد رذائل ما قبل ١٩٥٢م ، ومضاعفتها بالكذب ، وتجنيد الأفلام والسينما لذلك .. مع جحد متعمد لمحاسن ذلك العصر حتى صارت « باشا » و« بيه » عرفاً لكل رذيلة وبلادة .. مع مزايدة ببذخ ذلك العصر وبساطة ابن هذا العصر .

والواقع أن من المنطق قاعدة « من العصمة أن لا تقدر » ، ولم يترك الجهد المكدود لطلب لقمة العيش غير المغموسة بالسمن والعسل مجالاً لأن يكون ترك المظهرية والكماليات زهادة !! .

وعوداً على بدء أقول : نحن في أوضاع أسوأ بكثير من الأوضاع التي عالجها جيل ٥٢.. ومن الأوضاع التي تدنى فيها جيل ٥٢ .. وبالبداهة ليس شفاؤنا في فتح دفاتر جيل ٥٢ .

ولا ينقصنا اليوم الوعي بما نحن عليه ، والوعي بما ينبغي أن نصل إليه ، والوعي بكيفية الوصول .. وإنما تنقصنا القوة ؛ لعجز في ذواتنا نحن ، ولأن غيرنا فرض علينا حصاراً أقوى منا .

وبداية الخلاص حينما يكون قادة الأمة منها ، ومعنى ذلك وحدة الانتماء لحق الجماهير التاريخي في أرضهم ، وأن لهم عليها المواطنة والقيادة معاً .

وبهذا يكون ما بين الراعي والرعية عروة غير منفصمة لا يتسلل منها

عميل أو مرتزق ، وتجبن الأقليات عن تكدير حقها القانوني في المواطنة .

ومن عمالقة جيل ١٩٥٢م الشيخ الغزالي قبل أن يعرفني منذ كانت كتبه تفد إلى شقراء وأنا في سن اليفاع (بواسطة من أستدين منه لشراء الكتب والمجلات من الحول إلى الحول) .

وكان إيقاعه الأدبي جذاباً إضافة إلى وعيه الفكري المعايش لهموم عصره .

وعندما حلت كارثة تسع دجاجات وديك ، وكارثة عمامة الأزهري التي ألقيت في ملعب الكورة تجاه البوابة والحارس : كان آل الغزالي كآل قطب في جهادهم المقدس .

وكنا شبيبة ذلك الوقت نُستفز - بالبناء للمفعول - بين تأزُّمين :

تأزم منابر إعلام ذات وعي سياسي دعيٍّ ، ووعود كاذبة ، وتضليل منظم .

ولا أحصي أحمال صحافة ومجلات ما بعد ١٩٥٢م ذات الصور العملاقة لصانعي السياسة العربية .. فرَّطتُ فيها خلال تقلبات المزاج وهموم السكن حيث ظللت ثمانية عشر عاماً مستأجراً كل عام انتقل من بيت إلى بيت ، وقد أشعرني والدي رحمه الله أن الذي لا يستقر في قبر الدنيا طُرُودِيٌّ !! .

وكان مذياع تلك الصحافة يقذف في آذاننا بالأكاذيب .

وكان التأزم في استبطاء الساعة الفاصلة التي تقذف بإسرائيل في البحر .

والثاني : تأزم مجتمعات محافظة ترى ناشئتها تستحيي من تهمة التمسك بالدين ، والجد فيه بالاجتهاد في النوافل تعبداً ، والكف عن بعض المباح تزهداً .

وترى الإرهاب الإعلامي يصد الناس عن دين الله بشعارات الرجعية ، والتخلف ، والمشيخة ، والأوراق الصفر ، وأمير المؤمنين ، وكل استهزاء من هذا النمط .

وترى ميدان الجد في عزائم الدين لا يتعدى الدفاع عنه والمحاجة دونه ، وشرح يسره ومعقوليته ، ووفائه وكماله وخصائصه ، وآثاره في النفس والمجتمع والمآل .

وخلَّف الإعلام بتضليله وإرهابه جيلاً رخواً ، وآخر غير مبالٍ ، وثالثاً في إلحاد جَلْدٍ وعناد .

وكان القابض على الانتساب إلى الدين - وفوق ذلك التدين به كما يجب - كالقابض على الجمر .

وهذا التمزق بين التأزمين لابد فيه من الضياع والقلق ، وكانوا يداوون الكلوم بما يشبه شراب أهل النار مما يزيد عطشاً ولهيباً .

كانوا يداووننا بحفلة الست بنت إبراهيم تحرك منديلها من تمام العاشرة ليلاً إلى قرب الفجر وتشدو بأنت عمري ، أو عودت عيني وما أشبه ذلك الصفير الذي حمدت الله أن جعلني منه في عافية ، والله المستعصم به فيما بقي المستعفى منه عن وزر ما سلف ، فهو الغفور الرحيم (٥١) .

قال أبو عبدالرحمن : وإنني في مرحلة من العمر أتقرب فيها إلى ربي بالاعتراف بذنبي والخجل من سالفتي .

ويتلو ذلك صخب الجاز ، وإيقاع الباليه ، ودبكة كل غجري أو غجرية .

---

(٥١) على أن الحنين للشدو القديم لازال يعاودني ، ومذهب ابن حزم في هذا واسع ؛ فهو عنده لذاته - لا لغيره - من المباح ، وترك سماعه أفضل .

وكل ذلك نعيم ساعة يعقبها جحيم سنة من هم وقلق ووحشة .

وتلك بعض أعباء الفن ، وشيخنا الغزالي حفظه الله يأبى التنكر للفن في مقدمة الكتاب الصاعقة .

كانت ردة مروعة في العقيدة والسلوك ، وكان أبو بكرها آل قطب وآل الغزالي في القارة الإفريقية ، وآل الندوي والمودوي في القارة الهندية .

وآخرون على تنفُّتهم كثيرون يتحدثون عن أمهات المطالب الشرعية - كما هي في مصادر الشرع وموارده - بأسلوب العصر ولغته ومن خلال واقع أحداثه .. وقد يخطئون في تصوُّرٍ بعض أحكامه الجزئية خطأً مَن قصْــده الحق .

فبشروا الناس وأقسموا لهم أن المستقبل للإسلام وأهله ، وجذبوا الإحساس الجمالي للأمة بإيقاعهم الأدبي ، وأرضوا الحيوية الفكرية بعرض ثقافتهم وعمق معرفتهم بأدواء العصر ، وحسن تصورهم للمطالب الكبرى في دين الله ؛ لتكون الحياة على الأرض بما يرضي الله .

وأوذوا وتلقوا ضغوطاً سياسية واجتماعية ، وصبروا وصدعوا بكلمة الحق ، ومنهم من قدم رقبته للمقصلة كسيد قطب ، أو لأخت المقصلة كالهضيبي رحم الله جميعهم .

قال أبو عبدالرحمن : ولي عن أرض الكنانة تدفق عاطفي في شتى مقالاتي وأبحاثي ، وفي بعض الكتيبات ككتيب « شعب بوان » الذي أعدت تأليفه بعنوان « المرأة وذئاب تخنق ولا تأكل » .. وتلا هذا التدفق العاطفي عتب في إحدى المناسبات عنوت له بكلمة « أهل الكنانة خير مما تقولون ، ونصها :

مصر العرب ذات سبعين مليوناً هم الجزء الأكبر من قَدِرنا العربي ، ومصر

الإسلام ذات الأزهر الرائد ، ومصر بلد الخؤولة منذ إبراهيم بن سيد البشر محمد ﷺ ، ثم ظل الدم العربي يمتزج بالدم العربي المصري ؛ لأن كل فتى عربي وجد في الوطن الكبير المرأة الصالحة الودود الولود ٠٠ مصر العربية الإسلامية حاملة الهم التاريخي الثقيل ، وعندما انفصمت الخلافة الإسلامية ، وتولى أمور المسلمين مماليك وصقالبة وأعاجم وأشباههم كانت مصر والشام ملاذاً بعد الله لكل متحفز لجمع الكلمة ورأب الشعب من أمثال صلاح الدين الأيوبي ؛ ولهذا التفت شيخ الإسلام ابن تيمية بثاقب نظره يتحرى طائفة المسلمين المنصورة في عهده بالشام ومصر بناءً على رواية (الغرب) في حديث الطائفة المنصورة ٠٠ مصر العربية المهاجَر الكبير لبني معد ويعرب منذ القرن الأول من الهجرة ٠

وفي صعيد مصر وأريافها وصحاريها قبائل عربية أكثر مما في الجزيرة مثل جهينة وبني هلال وبني سليم والحويطات وما لا يحصيه العد من قبائل استقلت بأسمائها ٠

مصر العربية والإسلامية بلد المواهب الدينية والدنيوية المباحة والمحظورة ٠

والبلد الكبير الأم وهو بهذا الثقل والقدر الكوني من البدهي أن يستهدفه الأعداء بغية تحييده ، وبتره عن الهم الإسلامي والعربي ، وبدأ هذا تطبيقياً منذ قرنين من الزمان ٠٠ أي منذ حملة نابليون على الشرق الأوسط ، وكان يصحب العمل السياسي الأجنبي العطاءُ الفكري من عرقيين وطائفيين باعوا ضمائرهم للشيطان ، فروجوا لفكرة المصري غير العربي المسلم مستغلين أن القراء من ملايين العرب سيقرأون لكاتب مصري عربي ، ولا يدققون في هويته الطائفية أو العرقية ٠

وحمل طرف الرداء الإبليسي من هان عليه أن يبيع عقله للكيد الأجنبي

بسهولة شعوراً بالنقص الحضاري المتعلق بإعداد القوة ٠٠ وعادة الضعيف تقليد القوي والاستنامة لكيده ٠

ولكن الغيرة لله ودينه ثم للوطن والتاريخ جبلة في عقول المصريين ووجدانهم ، فاهتزوا يبصرون الأمة ويذكون فيها وقدة الحماس ٠

قال أبو عبدالرحمن : ولا ريب أننا من منابر مصر ومواهبها نحلم بدولة قوية عتيدة من المحيط إلى الخليج ، ولم يحصل ذلك بعد ، بل حصل ذل أمتنا وتمزقها في دور خائب راهن لا مثيل له على مدار التاريخ ٠

ولا يُعزى ذلك إلى تخلي مصر عن رسالتها الإسلامية والعربية ٠٠ بل الوجدان العربي - وفي مصر من باب أولى - يغلي بذل الهزيمة ٠٠ الهزيمة والنكسة اللتان حَصَلَتا على الرغم من مشاعرها بمقتضى قدر الله الكوني ٠

والذي يجري اليوم في بعض الصحف المصرية من حملة مسعورة ظالمة مفترية على شعبنا السعودي وأمتنا الإسلامية وتاريخنا العربي اعتداء يتنزه ويتكرم ويترفع عنه شعب أرض الكنانة ٠٠ بل هو اعتداء الشرذمة القليلة من المليين والعرقيين والطائفيين على مشاعر الملايين من الشعب العربي المسلم الذي لا يزال يهفو إليه بعد الله طموحنا الديني والقومي والوطني ٠

قال أبو عبدالرحمن : ولست أرمي القول جزافاً ، بل عقيدتي أن الإنسان مسؤول عن قوله عند ربه ، وشعوراً بهذه الحقيقة لا أزال على تأكيدي بأن ما يجري اليوم إنما هو من عفن مشاعر أقلية منبوذة من عرقيين منبوذين في المجتمع الكبير ، والبرهان على هذه الحقيقة أمور عديدة :

أولها : أن أصحاب تلك المقالات نكرات داخل وطنهم ، ومن باب أولى أن يكونوا غير معروفين خارج الوطن الأم ٠

وأسماؤهم تدل على أنهم من العرقيين ، فلكل أهل ملة وعرق وطائفة

أسماؤهم التي يحافظون عليها .

وثانيها : أن أساليب الأداء شوارعية وعربجية ، وقد كرم الله مصر في الجملة أن تنطق بالبذاء ة والهجر .

إن هذه البلد التي كرمها الله بالأزهر والمقريزي وابن حجر والسيوطي والسخاوي والأدفوي وآل البنا وآل قطب وآلاف غيرهم إنما هي منبع العفة والصدق .

وثالثها : أن الشهرة فيما نشر من عربجة للمؤسسة وليس للمرتزقة الذين سيقبضون ملاليم الشتايم من المؤسسة الصحفية قبل مغادرة مكتب رئيس التحرير .. مع عناء قلم التحرير في التعديل تعديلاً يخفف من شوارعية العربجة إلى حد ما .

إن الشهرة كما قلت للمؤسسة لا للمرتزق الكاتب تجوزاً .. وهي الشهرة لمثل طيبة الذكر روزاليوسف .. وتاريخ روزاليوسف معروف منذ نشأتها ، والهم المصري الكبير يعاني أمثال هذه البثور ، وقس على روزاليوسف كل روزٍ أخرى .

ورابعها : أن من النكرات في روزاليوسف المشهورة أسامة أنور عكاشة لم يأت معبراً عن ملايين الشعب المصري الخيِّر ، وإنما عبر بصراحة عن هموم العرقية .. أولم يقل : إنه من حفدة رمسيس وتحتمس وأحمس ؟ .

أولم يلمز الهم العربي الإسلامي بأنه غنائية مصرية واهمة ؟ .

كما أنه يتهم العصماء المصرية بالتشدق ، وما ذلك إلا أن أمثال شوقي تغنى بمثل الأهرام وهو في قمة عروبته وإسلامه .

قال أبو عبدالرحمن : يخسأ حفيد عكاشة ، فالشعب المصري حامل همنا وتاريخنا .. يعيش مع الطائفيين بالعدل ، ويحمي نفسه من مكائدهم ، وينتصر

قريباً إن شاء الله على دسائسهم ·

وكل تراث على أرض مصر من مئات السنين هو فخر لكل عربي بمنظار دنيوي ·

وأما بالمنظار القلبي فأساتذتنا من المواهب المصرية المباركة هم من جملة من علمونا أن الولاء والبراء لله ولأجل الله ·

وكل إرث قومي أو وطني نفيد منه عملياً ما أمكنت الاستفادة ، وإنما نشاهد من آثار رمسيس جماداً ، ولو وجد ذلك الفكر مكتوباً لكان له مجاله التاريخي المهم في أسفار الحضارة والفكر منذ أرسطو وجالينوس وبقراط إلى الفارابي وابن سينا ·· إلخ ·

وخامسها : أن ذلك العفن ليس عداء للسعودية في ذاتها وإنما هو عداء للعروبة في جملتها ، فهو يكرر الثقافة البدوية المتخلفة ·

والبدوي في جزيرة العرب لا ثقافة له إلا ما ورثه عرقياً من طبيعته الشهمة ، وما ورثه تلقائياً من دين ربه ·

والبدوي في صحرائه يحمي الذمار ، ويعين الكَل ، ويغار على محارمه وحرمات الآخرين ·

وقد وصل إلى حالة من الفقر لم يبلغها غيره من البشر ، وبقي خلقه على صفائه ورنينه كرماً وإيثاراً وعفة وشهامة ·

وذاك هو صاحب الثقافة البدوية لم تستبح في مجتمعه علناً القبلة ·· وذلك دون الأمور العظيمة التي استباحتها مجتمعات جاهلية بدعوى الفقر ، ثم صارت ضرورة حياة بعد الغنى ·

وسادسها : أن ذلك العفن العربجي يتباكى على دخل سياحي مصدره السعوديون ، ثم يُلَوِّح إلى سلوك السعودي الرديء الذي تخدمه السياحة ·

وهذه مشاعر عرقية بلا ريب تفتخر بموارد تتأذى منها المشاعر الجماهرية الخيِّرة .

والشعب السعودي ليس مجتمعاً معصوماً ، وإنما يتميز بمقدار قلة الحثالة فيه .

وأي شعب يقوم فيه تطبيق حدود الله ، وتقوم بنية المجتمع فيه العلنية تديناً وطبيعة على العفة سيكون فيه حثالة تفسد في الخفية ، وتغادر وكرها إلى أي مجتمع لا تُرَدُّ فيه يد لامس .

وهجاء هذا العرقي للسعودية باحتمال ممارسة الفساد من بعض الحثالة في الخفاء هو في ذاته شهادة وتزكية لمجتمع سعودي يقوم علنه على نقاء .

وأفضل قائد على وجه الأرض محمد ﷺ ، وأفضل مجتمع مجتمعه ، وقد قَتَل ورجم وقطع وجلد ؛ لأن المجتمع الطاهر لا يخلو من فساد خفي يصلحه شرع الله بوازع القرآن ووازع السلطان .

وإنما تُبكى الفضيلة في مجتمع لا يرد يد لامس ، ويكون الفساد فيه علناً .

وسابعها : أن ذلك العفن العرقي يتحدث بأسلوب التجزئة والتفرقة ، فمصر غير السعودية ، والفرعونية الرمسيسية غير العروبة .. وهذا الشعور لا يوجد في السعودية حكومة وشعباً ، بل مصر قرة العين لنا ، والقذى في عيون أعدائنا ندعو لأساتيذنا منهم كما ندعو لوالدينا .

وسجلات دولتنا لو استنطقت لكانت شاهدة بأن خيرنا لنا ولإخواننا في الإسلام والعروبة والرقعة الكبيرة منذ أوجد الله علينا .

إلا أن في العفن الإقليمي أكاذيبَ وبهرجاً لابد من تجليته ، ففي كلمة

حمدي السيد أن دماء أولادهم سالت دفاعاً عن السعودية .

والمؤسسة الصحفية العلمانية العرقية تعلم قصة حرب الخليج ، وتعلم قصة المؤامرة من بدايتها ، ومن هم أطراف اللعبة والإحراج ، وتعلم الأدوار وأهلها .

والحرب حربان : طراد في الميدان له أهله ، وحرب المغْنى للتحميس والتشجيع ، وفرسان هذه الحرب كل ذي حلق وسيع وصوت مليح .

وفي عريجة عبدالله إمام أن الدور الإقليمي الضيق جاء يزيل جهلنا ، ويعالج مرضنا ، وينشر بيننا رسالة الحضارة .

قال أبو عبدالرحمن : أحسن الله إلى كل من أحسن إلينا بالحسنى وزيادة .

ولا يثلم هذا الإحسان أن المسألة مسألة أخذٍ وعطاء بعقود مالية ذات حقوق إدارية ومعنوية .

ولا يثلم هذه المنة أيضا أننا في سوق العرض والطلب قد نأخذ الخبرة الأدنى مراعاة للصلة والقربى .

ويبقى الود ما بقي العتاب ، ومن حقنا أن نعتب على أشقائنا فنقول : قبل أن ينعم الله علينا لم يشعر بنا إخواننا ونحن نتساقط جوعاً ومرضاً وفقراً .

وقد ساعد على إخفائنا عن أعين الأشقاء أننا مؤتزرون بلباس القناعة والتعفف والتأقلم على الشظف .

وربما حاسبنا الأشقاء بكسوة الكعبة ، أو ببعض الأوقاف الرحمانية للحرمين ، أو برسوم الحج لقاء جهودنا الإدارية التي تبذلها الدولة اليوم أضعافاً مضاعفة مجاناً .

وفي كلمة حمدي أن حمل الحضارة الذي قاموا به عنا سد نقصاً عجزنا عن القيام به .

قال أبو عبدالرحمن : نعم فالشكر لله ثم لشعب مصر الكريم الذي أفدنا من معرفته الطبية والتعليمية والتربوية سواء أكان ذلك إيثاراً مجانياً ، أم كان بمقتضى عقد تتعادل فيه الحقوق ، فالأستاذ له تبجيله على كل تقدير .

ولا ينغص على ذلك أن الشعب المنجاب الكثير بأفراده جملة وبمواهبه الخاصة يوجد به الساذج والغبي وغير المخلص .

وإن شقيت السعودية أحياناً بعُقَد إدارية ، أو بغباء في التعليم ، أو بخلل في البناء ، أو بمزايدات في القول لا تساوي الفعل المبذول وهي الأجر المقبوض : فإن ذلك مغتفر بجانب حسنات مواهب الشعب المصري الكبيرة الكبيرة .

وأرجو ألا يُحسب علينا حضارياً ما نعانيه من رجعية وتضليل روزاليوسف وغالي شكري والعالم وعبدالمسيح وجرجس ، وكل محفل ماسوني .

وأما الإفادة من مواد الحضارة التي يملكها المصري والسعودي بماله ولا يملكها بمواهبه فليست فخراً ، ولو كان في ذلك فخر لكنا أولى به ؛ لأن كل قرية في جزيرتنا مدينة صغيرة تضج بماديات الحضارة .

وإنما الحضارة الحقيقية ما يحقق العلم والقوة ويلغي منطق حق الفيتو .

وإذا ملك شعبنا الكبير هذه القوة بماله أو حيلته أو موهبته بعد الله فذلك فخر لكل عربي مسلم ، وليس فخراً للسعودي فحسب .

وثامنها : أن العفن يقوم على منطق ظالم معكوس ، ولا يستبيح مثل هذا الظلم لمشاعر الجماهير غير العرقية ، فمن ذلك الظلم التأفف من نظام شرعي

هو نظام الكفالة الذي سنه الله في كل علاقة مالية أو بدنية ٠

والأخ العربي من مصر وغيرها لم يأت متطوعاً متبرعاً ، وإنما جاء لأداء واجبه الديني والقومي مشروطاً بحقه الفردي ؛ لأن أداء ذلك الواجب مصدر رزق ٠

ولم يأت المواطن العربي زائراً ، وإنما جاء وعليه حقوق وله حقوق لحفظ أجره وأمنه ، فهل من سبيل إلى ذلك غير الكفيل ؟ ٠

ومن ذلك أن تلك الصيحات العفنة تبرئة لمجرم أدانه القضاء الشرعي ، وتجنٍ على بريء برأه القضاء الشرعي ٠٠ ومصدر ذلك التجني طرف واحد هو المتهم ٠

فمن الذي منع الصحافة العلمانية من انتداب مراسلين يصورون سجل ضبط القضية وينشرون حيثيات الحكم ، ثم يناقشون الحكم بمنطق عادل يستند إلى القانون الشرعي ؟!٠

ومن ذلك وصف الحكم الشرعي في قضية القذف بأنه حكم بربري ٠

وهذا المنطق يوجب على كل مسلم في مصر والسعودية وفي كل مكان أن يعد الجهاد لروزاليوسف والعلمانية والطائفية والعرقية في كل رقعة عربية ٠

وليس ما حصل عاطفة إقليمية لفرد أجرم فأدانه القضاء ، فحاشى لله أن يكون ذلك شعور أي فرد من الشعب الكبير المؤمن ٠

وإنما ذلك تحامل طائفي يعلم أن الرضى بنظام البلد جزء من العقد، وأن ذلك عرف دولي ، وأن دولتنا مجبرة إجباراً لا خيار لها فيه بوازع وجدانها ودينها ورغبة شعبها على إقامة حدود الله ٠٠ وكم من عضوٍ فاسد من الشعب السعودي اجتث وجوده وازع السلطان ، وحضر عقوبته مبتهجاً نسيبه وابن

عمه الأدنى .

وإذا كان القذف سهلاً في مجتمع لا يرد يد لامس ولا يحمارُّ ويصفارُّ خجلاً : فإنه أعظم مصيبة في مجتمع محافظ إذاعُيِّر فيه الفرد برذيلة تمنى بطن الأرض قبل ظهرها .

وحكم الشرع إما جلد القاذف ، وإما معاقبة المقذوف إذا ثبتت إدانته .

ومن التحامل والتجني كثرة ترداد العفن العلماني لدعوى الاعتداء على المصريين في السعودية ، ثم لا تجد لهذه الدعوى أي واقعة تسندها غير دعوى مجرم بجريمة القذف طُهِّر ظهره بعدالة الشرع ، فأين هؤلاء العلمانيون عن خمسة آلاف مصري أو أكثر قتلوا في العراق ظلماً وعدواناً ، ولم تتكلم الصحافة الطائفية بعشر هذه العنترية تجاه دولة وشعب يبذلان الخير والندى ؟!.

وبغير قانون ولا مرافعة سلِّم سعوديون إلى أهلهم جثثاً بتوابيت ، وسرقت لهم أموال ، وصودرت لهم ممتلكات ، وأهينوا بالشوارع والمنتديات ، وضويقوا في صالات السفر والمراكز الإدارية ، وسرق سعوديون وقتلوا داخل بلدهم ففر الجاني إلى بلده .. فدفنتها أمتنا دولة وشعباً ؛ لأن الهم الجماعي فوق الجزئيات .

قال أبو عبدالرحمن : لست أقول للكاتب السعودي كل الصاع صاعين ؛ لأنني أعرف أن لسان العفيف أخرس ، وإنما أطلب من الآخذين بناصية البيان من المصريين أنفسهم (في مصر والسعودية) أن يقولوا كلمة الحق والعدل تجاه هذا الظلم الذي يمارسه الحاقدون من العلمانيين والعرقيين .

وتاسعها : فحيح تاريخي إقليمي عن محمد علي وإبراهيم .. والأمة العربية والإسلامية لا يلومون مصر في ذلك ألبتة ؛ لأن العرب والمسلمين بما في

ذلك مصر مغلوبون على أمرهم ، ويعلمون أن التدبير تدبير الدونمة التي رحلت بائع سجائر أمي ؛ ليملك أكبر رقعة ، ويطرد المماليك ، ويحتفل بنابليون ، وليس معه غير مئتي جندي !!٠

وقد كان عبئاً على مصر والجزيرة والخلافة الإسلامية حيث عاد إلى تقطيع أوصالها ، ولكن الحلفاء أوقفوه عند حد معين لما تجاوز دوره ٠

وتم الفراغ منه مغرب الليلة التي صبيحتها يوم الاثنين الموافق ١٤١٥/١١/١٧هـ ، ثم جرت معاودته بالإضافة والتهذيب عصر يوم الاثنين الموافق ١٤١٧/٧/٢١هـ بدارة داوود بسلطانة بالرياض ، ثم جرت نفس المعاودة في تونس منتصف الليلة التي صبيحتها يوم السبت الموافق ١٤١٧/٩/٢هـ ٠٠ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وسلام على المرسلين ٠

فهرس تفصيلي :

[وانتقل الأمر بالمشرق إلى بني العباس بن عبدالمطلب رضوان الله عليه ، وكانت دولتهم أعجمية سقطت فيها دواوين العرب ، وغلب عجم خراسان على الأمر ، وعاد الأمر ملكاً عضوضاً محققاً كسروياً .. إلا أنهم لم يعلنوا بسب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ، بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، ولعن بنيه الطاهرين من بني الزهراء ؛ وكلهم كان على هذا حاشا عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن الوليد رحمهما الله تعالى ، فإنهما لم يستجيزا ذلك .

أبو محمد ابن حزم
أسماء الخلفاء والولاة ضمن رسائل ابن حزم

٢/١٤٦ - ١٤٧]